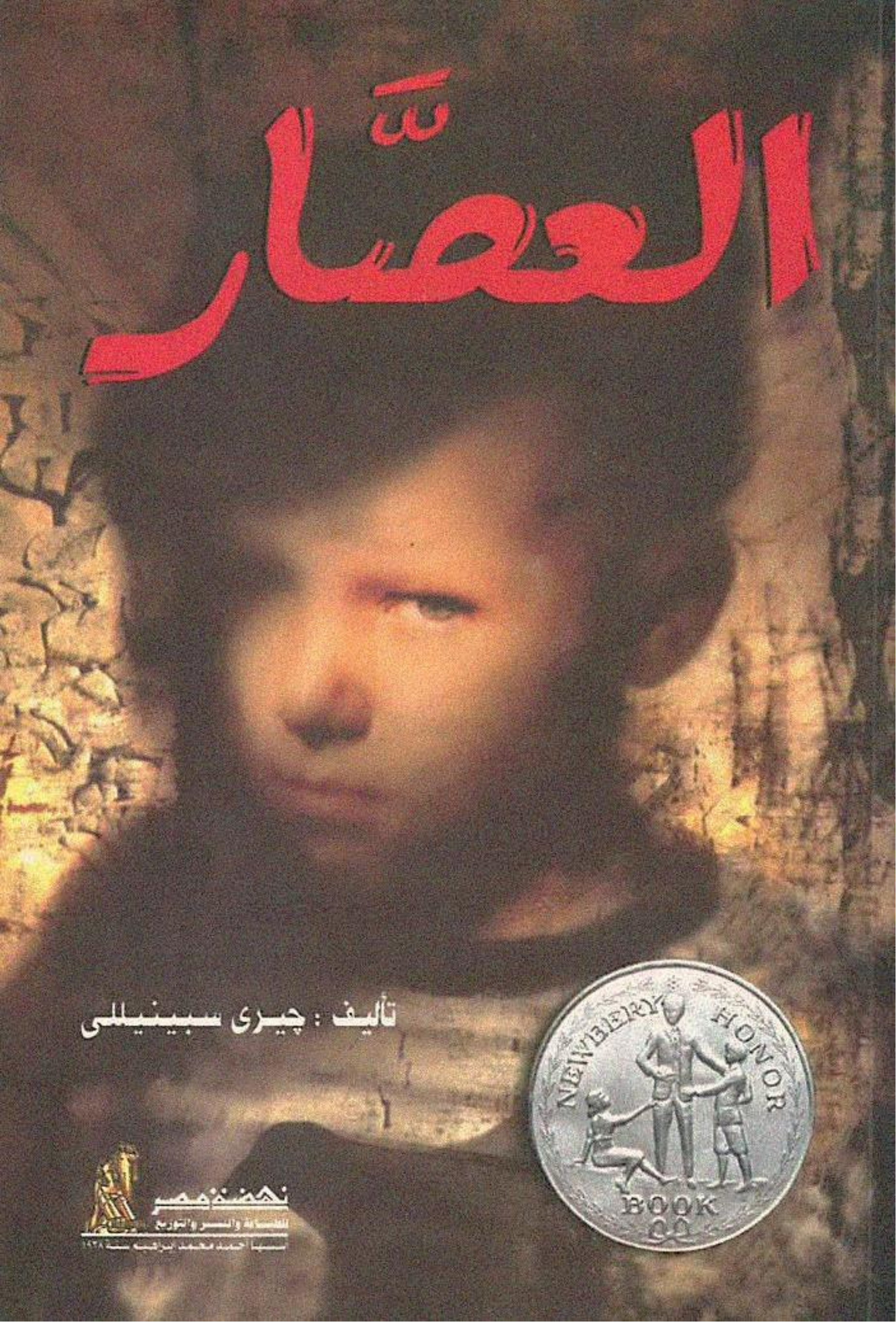
العصّار



تأليف : چيرى سبينيللى

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

العصَّار

تأليف : چيرى سبينيللى

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

تأليف : چيرى سبينيللى

ترجمة : نبيلة النقراشى

إشراف : داليا محمد إبراهيم

« برنامج ترجمة الكتب الأمريكية »

ترجمة كتاب Wringer تصدرها شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - بترخيص من Harper Collins Children's USA.

الترقيم الدولى، 8-2812-14-977 رقم الإيداع 10997/ 2004 تاريخ النشر، يوليو 2004

الإدارة العامة، 21 ش أحمد عرابى - المهندسين ص.ب، 21 إمبابة ت، 3466434 - 3472864 فاكس، 02/3462576

المركز الرئيسى، 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة 6 أكتوبر ت، 8330287 - 8330289 فاكس، 02/8330296

مركز التوزيع، 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت، 5909827 - 5908895 - 5898085 فاكس، 02/5903395

فرع الإسكندرية، 408 طريق الحرية - رشدى ت، (03)5230569 www.nahdetmisr.com

فرع المنصورة، 47 ش عبد السلام عارف ت، (050)2259675 publishing@nahdetmisr.com

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

جائزة نيوبرى



تقدم هذه الجائزة كل عام لأفضل كاتب للأطفال فى الولايات المتحدة الأمريكية.. والكاتب الذى يحصل عليها، يحجز لنفسه مكانًا فى قائمة أعظم الكتّاب.. فهى أكبر وأقدم جائزة فى الولايات المتحدة.

وقد بدأ تقديمها عام 1922، عندما اقترح فريدريك ميلشر على اتحاد المكتبات الأمريكية إنشاء هذه الجائزة، على أن تقدم باسم چون بيرى، وهو أقدم بائع لكتب الأطفال فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا.

يهدف الاتحاد من تقديم الجائزة إلى التشجيع على الابتكار والأفكار الخلاقة فى حقل الكتابة للشباب، سواء أكان شعرًا أم رواية أم مسرحية.. كما حدد لها شروطًا كثيرة منها: أن يكون العمل منشورًا فى نفس العام، ولم يسبق نشره، كما أن الكاتب يجب أن يكون مواطنًا أمريكيًا.

ويفوز الكاتب بميدالية برونزية. صممها بول تشامبلان، محفور عليها اسم الكاتب، وتاريخ الفوز بها.

وفى عام 1973، اقترح فريدريك.ج. ميلشر تقديم جائزة كالديكوت لأفضل تصميم، أو رسم لكتاب الطفل، وسميت بهذا الاسم تكريمًا لرسام الأطفال الإنجليزى فى القرن التاسع عشر راندولف كالديكوت.

بعض الكتب الحائزة على جائزة نيوبرى

1 ـ صيف البجع.

2 ـ معجزات فوق التل.

3 ـ ساوندر.

4 ـ البعد الخامس.

5 ـ الأسير.

6 ـ راسكال.

7 ـ سى بيسكيت.

قصص أخرى للشباب :

1 ـ الأعظم.. محمد على.

2 ـ الأخوان رايت.

3 ـ العصَّار.

إلى چيرى وهيلين

زائر غير مرغوب فيه...

نقر على النافذة..

تكرر النقر ثانية فى الصباح التالى.

أوه، لا.. دخل بالمر المنزل وهو منهك جدًّا، رفع حافة الستارة قدر بوصتين. كان هناك أكثر الطيور صمتًا فى العالم، يخفض رأسه الصامت فتحملق عينه البرتقالية الصغيرة ثانية إليه.

ركع بالمر عند النافذة، وتحدث إلى العين البرتقالية: «ألا تريدين أن تعيشى؟» أنت أيها الطائر الصامت الغبى، اذهب وشاهد ملعب كرة القدم. هذه المدينة تقتل الحمام. يوجد هنا ولد اسمه «بينز». إنه صديقى، لكنه ليس صديقك. إنه يكرهك. إذا حدث ورآك سوف يلوى رقبتك. وإذا لم تهتمى أيتها الحمامة بأمرك؛ فماذا عنى؟ ماذا تظنين سيحل بى إذا فكرّ الناس أن لدىَّ حمامة؟!!

مدينة وايمر: يستعد مئات من صيادى الحمام فى هذا المجتمع الريفى بتنظيف بنادقهم استعدادًا ليوم السبت الذى يوافق الاحتفال السنوى الثالث والستين لعيد الحمام. وفى هذا اليوم ابتداءً من الساعة الثامنة صباحًا يأخذ المشارك الذى سدد رسم المشاركة فرصة إطلاق رصاصات بندقيته على عدد من الحمام يتراوح ما بين عشر وعشرين حمامة من لحظة إطلاق سراحها من الصناديق.

ويرتب المتسابقون وفقًا لنظام يعتمد على النقاط بحيث يحصل فى نهاية اليوم المتسابق الأكثر دقة على جائزة أحسن صياد وهى الجائزة التى يرنو الجميع إلى الفوز بها. وتوجه قيمة المتحصلات النقدية للاحتفال إلى صيانة حديقة البلدة التى تمتد على مساحة أربعين فدانًا تقريبًا.

أعلن المنظمون أنهم حصلوا على 5000 حمامة تقريبًا للاحتفال، وأن بعضها قد تم شراؤه من المربين المحليين، بينما البعض الآخر تم الحصول عليه من مصائد ساحات السكك الحديدية بالمدن الكبيرة.

ويوضع الحمام فى صناديق بيضاء، وعندما يأتى دور المتسابق يطلق نيران بندقيته على سرب من الطيور أثناء إطلاق سراحها واحدة تلو الأخرى عن طريق خيوط مثبتة على الصناديق.

يسقط معظم الحمام، ويموت الكثير منه فى الحال بينما يُصاب البعض بجروح، ويقوم الأولاد الذين يطلق عليهم «قاصمو الرقبة» بجمع كل الطيور الساقطة ويلوون رقاب الطيور الجريحة منها ثم يضعون كل أجسام الطيور فى حقائب بلاستيكية. ويتم بيع هذه الأجسام لصناعة الأسمدة، أما العدد القليل من الحمام الذى ينجو من إطلاق النيران فإنه يشق طريقه إلى السماء هربًا.

يجرى الصيد فى جو احتفالى تسوده رائحة الشواء ومرح الأطفال. وقد قدر عدد من شهدوا الاحتفال فى العام الماضى بحوالى 4000 شخص.

يمثل عيد الحمام القمة المعتادة مهرجان الأسرة وتسبقه بأسبوع احتفالات تأخذ صورة التسلية بمختلف وسائل التسلية ومسابقات التهام الفطائر...

العصَّار

الفصل الأول

لم يكن يرغب فى أن يكون قاصمًا لرقاب الحمام!

كان هذا هو أحد الأشياء الأولى التى عرفها عن نفسه، ولكنه لا يستطيع أن يقرر بدقة متى عرفه، وإن كان ذلك منذ طفولته المبكرة. والأكثر أهمية من إدراكه المبكر هو أن هذا الشعور كان راسخًا فى أعماقه، يشعر به كما تشعر المعدة بالجوع.

لكنه شعور مختلف عن الجوع، مختلف عنه، بل أسوأ منه؛ لأنه كان موجودًا دائمًا. الجوع يأتى أحيانًا فقط، كما هو الحال قبيل العشاء أو فى أثناء رحلة طويلة بالسيارة، ولكنه ما يلبث أن ينتهى فور تناول الطعام، ولكن هذا الشعور لا توجد طريقة لإشباعه. حسنًا، ربما كانت هناك طريقة، ولكنها لم ترد إلى تفكيره، وهكذا لم يفارقه هذا الشعور.

والحقيقة أن الذى فارقه هو الإحساس بصعوبة تحقيق ما يريد؛ لأنه لم يستطع التهرب منه، وإلا كان يهرب من نفسه. أفضل ما أمكنه فعله أن يتغاضى عنه. فعل ذلك أحيانًا لدقائق أو لساعات ربما حتى ليوم أو يومين.

لكن هذا الأمر لم يكن من السهل إغفاله. قد يخرج من قلبه ويملأ أرجاء المكان مثلما يحدث عند خروج الهواء من إطار مثقوب. لقد اقترب كثيرًا، فى الداخل والخارج، صعودًا ونزولاً، ليلاً ونهارًا، أسفل السرير، فى درج جواربه، على درجات الشرفة، على أطراف شفاه الصبية الآخرين.

أو من حفيف شجيرة.

فى كل مكان.

فقط ليجعله يتذكر دائمًا.

هذا الشعور.. رفضه أن يكون عصّارًا لرقاب الحمام، هل أسقطه يومًا من على دراجته؟ هل حلّ رباط حذائه المطاطى؟ هل أهانه؟ هل تحداه وتشاجر معه؟

لا. لم يفعل شيئًا. ببساطة، صوت رفرفة جناح طائر صغير، يذكره باللحظة التى يخافها أكثر، عندما يصير عصارا من لا يريد أن يكون هكذا.

جاءت هذه اللحظة فى أحلامه. رأى فى أحلامه يديه تحيط برقبة حمامة ملمسها ناعم كالحرير. تبدو عين الحمامة مثل زرٍّ لامع فى قميص؛ فعين الحمامة برتقالية يتوسطها جزء دائرى أسود صغير. ترفع الحمامة رأسها إليه. لا تطرف بعينها. يبدو له وكأن

الطائر سيتكلم، لكن ذلك لم يحدث. تكلمت الأصوات فقط، «اعصر رقبتها! اعصرها! اعصرها!».

لا يستطيع. لا يستطيع أن يلوى رقبتها، ولا يستطيع أن يدعها تطير، استبد به اليأس ويريد أن يتركها، لكن أصابعه جامدة، والأصوات من حوله تغنى «اعصرها! اعصرها!» والعين البرتقالية تحملق.

تمنى أحيانًا لو أن هذا الطائر يأتى من خلفه ويطارده. ولكن ذلك لم يحدث فهو على الأقل قادر على أن يجرى منه ويختبئ. لكن الشىء لم يتحرك أبدًا. لقد انتظر فحسب. انتظر أن يأتى إليه.

وسوف يفعل. سيأتى بالتأكيد مثلما يلى الرقم تسعة الرقم ثمانية ويلى الرقم عشرة الرقم تسعة. سوف يأتى إليه دونما حاجة إلى أن يركب دراجة، أو يجرى، أو يمشى، أو أن يحرك عضلة واحدة. قد يسقط فى حضنه مباشرة دون فعل أى شىء سوى التنفس. سوف تأتى هذه اللحظة حتمًا مع كل يوم يمر ويقربه منها.

الفصل الثانى

نادته أمه «بالمر.. أسرع! إنهم قادمون».

دق جرس الباب

«بالمر!».

هبط السلالم بأقصى سرعة.

أشارت له أمه: «أسرع. أسرع. إنه عيد ميلادك. أنت دعوتهم».

اتجه نحو الباب وقد شعر فجأة بالخوف من أن يفتحه. لم يشأ أن يصاب بالإحباط. «هل أنتِ متأكدة أنهم هم؟».

حركت أمه عينيها: «لا. إنها العمة ميلى. افتح الباب».

فتح الباب، وجد بينز وموتو وهنرى ـ ثلاثة وجوه باسمة ـ ألقوا بهدايا ملفوفة على صدره، تجاوزوه واندفعوا إلى داخل البيت صائحين: «أين الطعام؟».

ظل بالمر عند المدخل، يغالب دموعه. كانت دموع الفرح والارتياح ـ كان واثقًا أنهم لن يحضروا، لكنهم حضروا، تساءل إن كانوا سيطلقون عليه اسم شهرة، ماذا يمكن أن يكون؟ إن هذه أسئلة كثيرة جدًّا.

بل هى أكثر مما ينبغى. المهم أنهم جاءوا ومعهم هدايا! إنهم يحبونه، كأنه واحد منهم، وها هم قد جاءوا أخيرًا.

دفع الباب بقدمه ليغلقه وذراعاه مملوءتان بالهدايا، وانضم إليهم فى غرفة الطعام، كان بينز ينتقى قشدة الشيكولاتة من كعكة عيد الميلاد بإصبعه، وبحركة مسرحية ألقى برأسه إلى الخلف، وأدخل إصبعه فى فمه كَمَنْ يبلع سيفًا، وعندما أخرج إصبعه لم يكن عليه أثر للشيكولاتة، ضحك موتو بصوت عال وفعل مثله، وكان هنرى يحملق فى والدة بالمر التى كانت تنظر باستغراب إلى بينز.

لم تكن والدة بالمر تُحب بينز، كما لم تكن مولعة بموتو وهنرى، ولكنها لم تكن تحب بينز بصفة خاصة، قالت عنه: «إنه فتّان ومثير للمشاكل، وأسلوبه وضيع»، كانت مُحقّة فى رأيها، ولكنه كان أيضًا زعيمًا لجميع الأولاد فى الشارع، على الأقل من هم أقل من عشر سنوات. كانت تلك طريقته على الدوام، إذ كان يتصرف بطريقة طبيعية كأنه ملك متوج.

دأب بالمر على أن يوضح لوالدته سلوك صديقه بينز بقوله: «ولكنه هو القائد!»، وفى كل مرة كانت أمه تستنكر عليه القيادة قائلة: «أى قائد هو؟».

إن مثل هذه الأشياء لا تتفهمها الأمهات.

قال بينز بصوت عال: «افتح الهدايا!» وأخذ يدق على المنضدة بملعقة، وكذلك فعل موتو.

ألقى الهدايا على المنضدة ولأول مرة نظر إليها نظرة فاحصة. كانت الهدايا ملفوفة فى ورق صُحف، مُعد بطريقة غير متقنة ومغلقة بشريط أسود. وليس شريط زينة ملون ولا عقدة على شكل وردة، ولا ورق بألوان زاهية.

مزق غطاء الهدية الأولى. كانت قلب ثمرة تفاح، لونها بنى وفاسدة. قال موتو بصوت مرتفع: «إنها منّى»، وصرخ: «هل تعجبك؟».

قهقه بالمر: «إنها رائعة.. شكرًا». يا له من ولد موتو هذا.

كانت الهدايا الأخرى عبارة عن جورب قصير مثقوب ويابس من هنرى ولكنه، كان ذات يوم أبيض اللون، ومن بينز شىء بنى اللون فى حجم إصبع الإبهام أدرك بالمر فى النهاية أنه عقب سيجار عتيق.

جلجلت الأوانى الفضية بينما كان بينز وموتو يضربان بأيديهما على منضدة غرفة الطعام وهما يضحكان.

كانت والدة بالمر مازالت تحملق وجاءت ببعض الهدايا المربوطة

بشرائط زينة ملوّنة وعُقد على شكل وردة وملفوفة فى ورق جميل. قالت: «بعد هذه الهدايا الجميلة التى قُدمت إليك، أشعر حقا بالخجل من تقديم هذه الأشياء المتواضعة إليك».

فتح بالمر الهدايا فوجد كرة قدم، وكتابًا، وحذاءً خفيفًا بكعب مطاطى، ولعبة بنك الحظ.

قال: «شكرًا يا أمى» ـ من الحماقة أن أزيد ـ إننى أحب هداياهم قدر حبى لهداياك بالنسبة لى؛ لأنهم صنعوها بأنفسهم. وهذا يعنى الكثير عندى. إنها تعنى: لقد جئنا إلى منزلك، وأعطيناك عقب سيجار، فأنت واحد منّا.

أضاءت والدة بالمر الشموع، ووضعت تسعًا منها على كعكة الشيكولاتة المغطاة بقشدة الشيكولاتة، وبدأت أغنية «عيد ميلاد سعيد» وسرعان ما حجب صوت الأولاد صوتها، فقد كانوا يصرخون أكثر مما يغنون، وعندما وصلوا إلى سطر «عيد ميلاد سعيد يا عزيزى» نظروا بسرعة إلى بعضهم ورفعوا صوتهم بالغناء: «سنو-وتس! عيد ميلاد سعيد».

لقد فعلوها أخيرًا، لقد أطلقوا عليه كُنية سنوتس، حرّك لسانه فى هدوء بالاسم ينطقه.

تساءل للحظة إن كان سيتلقى المعاملة؟ لكنه طرح هذه الفكرة

جانبًا، لقد بدا طمّاعًا إذ كان له اليوم نصيب وافر من اهتمام الجميع.

قالت أمه: «تمنّى شيئًا، وأطفئ الشمع».

حملق فى حلقة الشمع - تسعة أنوار صفراء متوهجة، تسقط فجأة وتصير مثل السائل، تسقط على الفتيلة. وفجأة شعر بالخوف القديم، يحل عليه من كتفه ثم انحرف عبر خده. وفجأة ذهب الخوف وتحدث إليه بينز بصوت أجش: «هاى، لن ننتظر طوال اليوم، عندى أمنيات كثيرة إذا لم يكن لديك ما تتمناه». استند بينز إلى المنضدة، أخذ نفسًا عميقًا ثم أخرجه، تلاشى وهج الشمع. ومضت أطراف الفتيلة باللون البرتقالى لمدة ثانية، ثم أصبحت سوداء.

ليطفئ بينز الشموع؛ لأن بالمر لا يهتم، ولكن لا شىء يمكن أن يطفئ وهج الشمعة التى بداخله.. بالمر لارو - سنوتس - أحدث طفل فى العالم يبلغ التاسعة من عمره - لقد أصبح واحدًا من الصبية.

الفصل الثالث

لم يكن المقصود أن يكون حفلاً حقيقيًّا. قالت والدة بالمر: «مجرد كعك وآيس كريم». هذا كل ما فى الأمر. لم تكن تريد بقاء «هؤلاء المشاغبين» كما كانت تناديهم فى منزلها أكثر من اللازم.

التهم الأولاد أكبر قدر من الكعكة والآيس كريم. ترك بينز وموتو مقعديهما وظلا يتجولان ويتنقلان بين أثاث البيت، وظلت والدة بالمر تعيدهما إلى المائدة بالقوة.

قالت وهى قلقة تطردهما نحو الباب: «أعتقد أنكما مرهقان الآن».

قالوا: «مزيد من الآيس كريم».

عندئذ أبدى بينز حاجته فى الذهاب إلى الحمام، أو هكذا ادَّعى. صعد إلى الطابق العلوى ثلاث مرات، ربما كان يستكشف غرفة بالمر. وعندما همّ بالاتجاه نحو السلم للمرة الرابعة، أمسكت والدة بالمر بذراعه، وقالت بصوت عالٍ: «حسنًا، يا أولاد، انتهى الحفل. حان وقت الخروج والاستمتاع بشمس الصيف الجميلة».

وعند خروج الأولاد فاجأ هنرى والدة بالمر قائلاً: «شكرًا على الحفل».

رد بالمر: «فعلاً، شكرًا يا أمى».

أخرج بالمر كرة القدم الجديدة ذات اللونين الأبيض والأسود. خطفها بينز منه وركلها إلى مؤخرة رأس موتو. صرخ موتو عاليًا وخرجا يتشاجران على الرصيف، إذ يتشاجر بينز وموتو عدة مرات كل يوم. مشاجرة لا تستغرق أكثر من عشرين ثانية تقريبًا، وكلاهما يدَّعى أنه هو المنتصر.

خرجت الكرة إلى الشارع ومنه إلى فناء منزل أحد الجيران. كانت ساحات المنازل بطول الشارع الذى يقطن فيه بالمر، صغيرة فى حجم بطانية. كان النجيل مشذبًا ومرتبًا ويحف كل ساحة حد من الزهور. كانت معظم المنازل رمادية اللون.

تعقّب هنرى الكرة وركلها إلى الشارع ثانية. كان هنرى يبدو دائمًا غريبًا وهو يجرى محركًا ساقيه وذراعيه، حيث كان أطول أصدقائه.

قال بينز: «أى من هذه المنازل منزل فيش فيس وجه السمكة»

لم يشأ بالمر أن يخبر، لكن بينز ظل ينظر إليه منتظرًا الإجابة.

أجاب بالمر: «لست متأكدًا».

ابتسم بينز ابتسامة متكلفة وقال: «غير متأكد!. إذنْ سوف أبدأ الصياح». ضم كفيه وصاح بأعلى صوته: «فيش فيس! فيش فيس! فيش فيس!».

أشار بالمر إلى المنزل المقابل لمنزله مباشرة وقال: «ذلك المنزل».
تقدم بينز إلى المنزل وصاح: «فيش فيس! فيش فيس!»

شعر بالمر بالخجل لم يتقدم أحد إلى الباب، ولم تتحرك ستارة على نافذة.

«حسنًا، فيش فيس. هذه هى رغبتك!». التفت بينز إلى موتو وهنرى قائلاً: «لنترك لها هدية صغيرة».

بحثوا عن البالوعة.

أطلق موتو صفيرًا عاليًا وجرى الثلاثة ناحية أقرب بالوعة.

كان بينز يطلق اسم فيش فيس على دوروثى جروزيك. لم يكن بينز والأولاد يحبون دوروثى، بل كانوا يضايقونها باستمرار كلما سنحت لهم الفرصة. لم يفهم بالمر السبب أبدًا، رغم أنه الآن واحد منهم إلا أنَّ عليه أن يحاول معرفة السبب. ربما يستطيع أخيرًا أن يرى سمكة فى وجهها.

ظلت والدة بالمر تحاول لسنوات أن يصبح بالمر ودوروثى صديقين.

لم يهتم بالمر أبدًا بذلك، لسبب واحد، هو أن دوروثى بنت. إضافة إلى أنها كانت فى صف دراسى أدنى منه، وتصغره بسنة كاملة.

عاد الأولاد من البالوعة وهم يحملون شيئًا فى كيس من البلاستيك.

قال بينز باكتئاب: «مجرد طمى وعصيّ». ذهب إلى منزل دوروثى جروزيك وأفرغ ما بالكيس على أعلى درجة فى السلم.

أشرق وجهه وقال: «قد يظنون أن شخصًا ما تقيأ».

دق بينز جرس الباب، وقرعه بيده أيضًا ثم جرى الجميع. كانت أول مرة يجرى فيها بالمر مع العصابة. شعر أنه يرتعد من الإثارة. ثم أطلق صرخة عالية، وكان أسرعهم جميعًا فى الوصول إلى الزاوية.

الفصل الرابع

ظل الأطفال يركلون الكرة لفترة قصيرة، ثم قال بينز وهو يركل الكرة إلى منتصف الشارع: «لنذهب إلى الحديقة».

قال بالمر: «لماذا لا نلعب هنا؟» لكن الآخرين كانوا قد اندفعوا بسرعة خلف الكرة.

لنذهب إلى الحديقة.

كان بالمر يكره الحديقة، لم يلعب هناك أبدًا، ولم يركب الأرجوحة، ولم ينزلق على لوحة التزحلق، ولم يُطعم البط، ولم يشاهد مباراة فيها أبدًا، ولم يقترب من ملعب كرة القدم أبدًا، لا لشىء إلا لأن ذلك الملعب سيتحول بعد شهر واحد من عيد ميلاده إلى مكان رعب كما يحدث كل عام.

سار بالمر باتجاه الحديقة، وبعد أربع بنايات وصل إليها، وتمنى لو وجدهم فى ملعب الكرة اللينة، لكنه كان يعرف أنهم لن يوافقوه على ذلك، ولم يكونوا فى ملعب البيسبول أو ملعب كرة السلة، أو ملاعب التنس أو بجوار مدفع الحرب العالمية الأولى أو ملعب الأطفال أو كابينة الكشافة أو منطقة التنزه.

سمعهم ثم رآهم يتسابقون ملعب كرة القدم وينبحون مثل الكلاب الصغيرة فى مرعى. ظل على الرصيف، ثم سار بطول الخطوط الجيرية حول الملعب.

تصايح الأطفال وركلوا الكرة ناحيته: «هيا يا سنوتس!».

صاح كاذبًا: «لا أستطيع. إن ساقى تؤلمنى. سأبقى هنا وأشاهدكم». وألقى إليهم بالكرة ليؤكد لهم ذلك.

كان يأمل ألا يغضبوا منه لعدم انضمامه إليهم. كان يحب أن يراهم يلعبون بهدية عيد ميلاده. كانت كل ركلة من قدم أحدهم تقول: «إننا نركل كرة القدم الخاصة بك. إننا نحبك. أنت واحد منّا».

كان يتمنى أن يظل هكذا إلى الأبد.

لكن الأمر تغير. التفت بينز إلى الخلف وأشار إلى هنرى وصرخ: «يوجد هنا واحد!» بدأ هنرى يضرب بذراعيه وينقض، كأنه طائر. وجعل بينز وموتو ذراعيهما مثل بنادق الصيد وضغطوا الزناد: «باو! باو!» أخذ هنرى يترنح وينحرف عن مكانه. بالنسبة لبالمر لم يكن هنرى الطويل يبدو كطائر على الإطلاق، بل كزرافة وضبعين يعويان ويصوبان فكيهما على ركبتيها. ومن بين الأولاد الثلاثة الذين يمرحون فى الملعب، كان هنرى هو الأطول والأكثر

هدوءًا أيضًا. كان لدى بالمر شعور بأنه يشاهد أكثر من لعبة، وأن هنرى لم يكن عضوًا فى المجموعة، بل كان فريسة أيضا.

بعد دقيقة أو دقيقتين خرّ هنرى على الأرض نتيجة لعدم توازن ساقيه الطويلتين وترنحه. صاح بينز: «عصّار!، عصّار!». صاح موتو: «عصّار!، عصّار!». انقضت أربع أيدٍ لتلتف حول عنق هنرى، تحرك رأسه مثل دمية بالية، تلويها فى هذا الاتجاه وذاك.

«عصّار! عصّار!»

وَهُنَت ساقا هنرى، ضحك بصوت عال.

«عصّار! عصّار!».

حاول بالمر أن يوقف تلك اللحظة مكانها، لكنها لم تتوقف. لقد عادت عبر الزمن واندفعت بقوة إلى ذات الملعب. مثلما حدث منذ ثلاث سنوات، أول يوم سبت فى شهر أغسطس، عندما كان العشب مخضباً باللون الأحمر، والبنادق تدوى، والطيور تتساقط، وتهوى بسرعة من فوق قمم الأشجار ومن بين الغمام مرتطمة بالأرض، أحياناً يظل بعضها على قيد الحياة، يتلوى على العشب حتى يأتى عصار ويمسكها من رقبتها ثم يلوى الرقبة. فما أشبه ما يحدث الآن بما حدث آنذاك!

أمسك كل من بينز وموتو بحلق الآخر وأخذا يتدحرجان ويتشاجران ويمرحان فوق النخيل. كان هنرى مصابًا بدوار، لكنه استعار توازنه الآن، وأخذ يضحك مع الآخرين، ثم انطلق معهم، وكان ثلاثتهم يصرخون ويركلون الكرة فى ساحة التنزه.

لم يكن بالمر يعرف سبب وقوفه هناك، وحيدًا عند حافة الملعب، آخر مكان فى العالم كان يريد أن يتواجد فيه. وعندما تلاشت أصوات أصدقائه، شعر بالصمت المحيط به. نظر إلى أعلى. لا شىء يطير فى السماء، أو يصيح من على الأشجار. ورأى أمام عينيه - للحظة - ذبابة اليعسوب تحوم حوله مثل طائرة هليوكوبتر صغيرة، ثم وسرعان ما اختفت. لم يكن حوله إلا الصمت والسكون، فراح يجرى للحاق بهم.

الفصل الخامس

لحق بهم فى الملعب. كانوا ينزلقون على لوحة التزحلق، يندفعون ورءوسهم إلى الأمام.

ناداه بينز قائلا: «تعال، يا سنوتس، لنصبح أربعة».

كانت والدة بالمر قد أخبرته عن ألواح التزحلق منذ فترة طويلة عندما بدأت تجىء به إلى الملعب. عليك أن تكون ثابتًا وأنت تصعد السلم. لا تمل إلى أسفل فتقع. لا تتزحلق ورأسك فى المقدمة. لكن الموقف الآن مختلف، فهو ليس هنا مع أمه، هو هنا مع «الشلة» ـ شلة أصدقائه.

«تعال يا سنوتس!».

انضم إليهم على السلم، وعندما رتبت المجموعة نفسها، وجد نفسه على الأرض. لم يستطع أن يأخذ نفسًا عميقًا. شعر وكأن إبزيم حزامه يضغط على معدته. حتى أن ميله للأمام جعله يشم رائحة لوحة التزحلق، واتجهوا إلى أسفل، وشعر بالمر فى هذه الفترة القصيرة بشىء أكبر من رعشة الاندفاع.

شعر وكأنه هو الذى يحمل أصدقاءه، وأنهم يعطلون اندفاعه

ويعتمدون عليه. ولو كان طول لوحة التزحلق ألف قدم لحملهم وهو سعيد. ثم تدفقوا مثل درنات البطاطس عندما تتساقط من كيس.

ركب الجميع ألواح التزحلق مرارًا، وتبادلوا الأدوار عند المؤخرة. فى المرة الأولى كان بينز عند المؤخرة. ولكنه أمسك الجانبين بإحكام إلى منتصف المسافة ثم توقف فجأة، فدفع بالباقين إلى الأرض.

صاحت سيدة من منطقة المراجيح: «أنتم، يا أولاد، لا تتكدسوا فوق بعضكم هكذا».

قرص بينز أنفه؛ وصاح وهم ينزلقون بصوت مشابه لصوت الإوزة: «إيه، أيها الرجل العجوز!». صاح موتو وهنرى كذلك مقلدين صوت الإوزة. وأخيرًا فعل بالمر مثلهم وقد أدار ظهره للسيدة وصاح:« إيه، أيها الرجل العجوز» - قبل أن يصله صوت القهقهة، وقد نسى أنه كان يكره الحديقة.

ثم أشار بينز من أعلى وصاح: «انظروا!» تتبع الجميع إصبعه الذى يشير به نحو ولد مستند على قضبان قفص القرود، وقد وقف ولد ضخم يمضغ شريحة لحم.

قال موتو لاهثًا: «فاركوار».

كان فاركوار ــ العصّار الأسطورى ــ أكثر الأولاد وقاحة، الذى يخشاه كل أولاد المدينة.

لماذا كان يحملق فى مجموعة أطفال فى سن التاسعة؟

نادى بينز على فاركوار وأشار إلى بالمر: «إنه هنا. الولد صاحب عيد الميلاد!».

فهم بالمر ما يقصده بينز. لم يكن عيد ميلاده سرًّا بالنسبة لفاركوار. كان على وشك أن يتلقى التكريم النهائى، الاختبار الأساسى، «المعاملة».

بدأ فاركوار يمشى. وسار الجميع خلفه.

لا يستطيع أحد أن ينفذ «المعاملة» مثل فاركوار. كان بالمر يعرف ولدًا وضع يده فى عصابة مدلاة من عنقه لمدة أسبوع بعد قيامه بتنفيذ «المعاملة». إلاّ أن فاركوار ذاته كان لا يمكن التنبؤ بنوبات غضبه. كان يتجاهل أعياد ميلاد بعض الأولاد تماما، يتخطاهم فى الطريق كما يفعل دائما، كما لو كانوا حثالة.

من ناحية أخرى، كان معروفًا بتجواله فى شوارع المدينة ثم يدق على باب منزل ويتحدث بلطف مع الأبوين المشدوهين قائلا: «سمعت بوجود ولد هنا فى سن عيد الميلاد».

يتحول بعض الأولاد إلى أجسام ترتجف. كانوا يحتفظون بتواريخ أعياد ميلادهم سرّا قدر الإمكان. وإذا أعلن مدرسهم تواريخ ميلادهم، فإنهم ينكرونها زاعمين أنها خطأ. كانوا يرفضون

إقامة حفلات. ويظلون فى بيوتهم لمدة شهر حتى لا يقابلوا فاركوار.

كان هناك جانب آخر للمعاملة. وهو التكريم، الاحترام الذى تناله من الأولاد الآخرين، ذلك الاحترام الذى يحظى به الجنود الذين يخوضون المعارك الضارية. كان هناك الاعتزاز بالنفس، بأن تعرف أنك اجتزت اختبارًا أكثر رعبًا وأكثر ألمًا مما يعطيه عشرة مدرسين مجتمعين.

سار فاركوار فى المقدمة نحو مدفع من مخلفات الحرب العالمية الأولى. كان المدفع على تل صغير يكسوه العشب ويطل على الحديقة.

اقترب فاركوار من بالمر، ودفع بطرف إصبعه آخر قطعة من شريحة اللحم إلى فمه؛ قائلاً: «يسار أم يمين؟».

لم يكن بالمر يعرف أن أمامه فرصة الاختيار. قال: «يسار، لا يمين».

«قرّر».

«يسار».

قال فاركوار: «اليسار».

أمسك فاركوار الكم الأيسر من قميص بالمر، ورفعه إلى أعلى كتفه، لدرجة أن أصبح ذراع بالمر عاريًا. فحص فاركوار الذراع فترة طويلة، يضغط عليه، يتحسسه مثل الطبيب. وأخيرًا قال لبينز:

«ضع إصبعك هنا تماماً. لا تتحرك حتى أقول». شعر بالمر بأطراف أصابع بينز على ذراعه، على جزء نحيل فى منتصف المسافة بين المرفق والكتف. بصق فاركوار على إصبعه، ثم حك طرفه فى التراب، ثم تحرك بالوحل الناتج فى يده ورسم علامة على ذراع بالمر، حيث كان إصبع بينز.

وأُشيع أن بعض الأولاد يبللون سراويلهم فى هذه المرحلة.

قال فاركوار: «عصابة للعينين؟».

نظر بالمر إلى المنظر الهادئ الجميل؛ أناس يلعبون، يمشون فى الحديقة، الأشجار، صيحات الأطفال. قال: «لا»، ولكن بصوت لا يكاد يبين، فقد تحشرج صوته، سعل وابتلع لعابه وحاول ثانية: «لا».

قال فاركوار: «حسنًا، لا تتحرك».

قال بالمر لنفسه: «ولا تنظر» هذا ما أسمعه دومًا فى الشارع: لا تنظر إذا ما نلت المعاملة. وفى الوقت الذى قبض فاركوار يده وأبرز مفصل إصبعه الوسطى، كانت جامدة مثل مطرقة الحداد وحادة مثل الحربة، من السوء بمكان أن تشعر بها، ولا تنظر إليها وهى قادمة نحوك حتى لا تجعل الأمور أكثر سوءًا.

أخذ فاركوار مكانًا إلى اليسار من بالمر، سار خطوة إلى الخلف، ووسع المسافة بين رجليه، ودب قدميه بقوة، ربض وانحنى إلى أسفل. شعر بالمر كأنه يشم رائحة شواء شريحة لحم.

وقف بينز وموتو أمامه مباشرة، يبتسمان، كما لو كانا يشاهدان شخصا على وشك أن يتلقى مداعبة سمجة. تمنى بالمر لو أنه طلب عصابة العينين. كان هنرى على الجانب بعيدًا. نظر بالمر نظرة سريعة إليه وتمنى لو لم يحدث. لم يكن هنرى يبتسم. كانت عيناه واسعتين مثل أنشوطة الجلاد.

التفت بالمر إلى الخلف ليرى بينز وقد اتسعت ابتسامته عن ذى قبل. كانت أسنان بينز أعجب أسنان شاهدها فى حياته. أقسم بينز أنه لم ينظف أسنانه بالفرشاة منذ ظهرت أسنانه الكبيرة. من وقت لآخر كان بالمر يرى جميع الألوان على أسنان بينز. كان اللون الأساسى بنيًّا مائلاً إلى الاصفرار مضافًا إليه اللون الأخضر.

صاح بينز وموتو: «واحد» عندما هوجم بأول ضربة، وأدرك بالمر فى الحال ذكاء فاركوار. أدرك أن فاركوار يعرف جسمه إلى حد ما أفضل مما يعرفه هو نفسه، ولا حاجة للتقهقر إلى الخلف مثل قاذف كرة البيسبول. ذلك أنه عند وجود الموضع المثالى، يكفى أن ينطلق رأس مفصل الإصبع من بُعد ست بوصات كى يحتوى جسم بالمر كله، فجأة فى الثقب الجديد فى ذراعه.

لكن بالمر لم يفتح فمه، فى الشارع ينصحون بذلك دائمًا. وإذا فعلت فسوف يضاف لك ثقب آخر.

«اثنان»

اغرورقت عينا بالمر بالدموع، موجهًا الاتهام إلى ابتسامات بينز وموتو. لا تبكِ. فى الشارع ينصحون بذلك، أو سيضاف المزيد.

«ثلاثة!»

عض بالمر شفتيه ورأسه يكاد ينفجر من الانفعالات المتلاحقة داخله.

قف! قف! قف! قف!.

«أربعة!».

إنه يعطيها حقها من الوقت. أنت تريدها أن تنتهى بسرعة لكنها تمر ببطء.

أدار هنرى ظهره.

«خمسة!»

موم دى ى ى ى ى

«ستة!»

«سبعة!»

«ثمانية!»

«تسعة!».

الفصل السادس

«ماذا حدث لذراعك؟».

كانت والدة بالمر ترفع كُم قميصه وتسأله سؤالاً لا يريد الإجابة عنه.

«قلت، ماذا حدث؟»

قال والده وهو يدخل الحجرة: «المعاملة». عبث بشعر بالمر وقال: «أليس كذلك أيها الشاب؟».

أومأ بالمر برأسه مؤكدًا. حتى الإيماءة تؤلم ذراعه.

فحص والده البقعة، وأطلق صفيرًا هادئًا، أومأ برأسه متأثرًا وقال: «تسع مرات موجعة أليس كذلك؟!».

«تمامًا». شعر بالمر أنه أطول قليلاً. وأحس كما لو كان والده قد ثبّت وسامًا على صدره.

لكن صوت أمه كان متوترًا: «عمّا تتحدثان؟ أية معاملة؟».

وجه والده الكلام إليه قائلا:«إنه تقليد فى منطقتنا منذ

سنوات. فى يوم عيد ميلادك تتلقى ضربات بعدد سنوات عمرك. لقد حدث ذلك لى كثيرا».

سخرت منه قائلة: «هذا لا يعنى أنه يجب أن يحدث له؟» ورفعت كم قميصه ثانية وقالت: «انظر إلى ذلك. انظر».

قال والده بهدوء: «إنها كدمة. ستختفى. إنه بخير. أليس كذلك يا أيها الولد الكبير؟».

هل كان بخير؟ لم تكن ذراعه فى حالة جيدة. إنها تقتله من شدة الألم. لكن ماذا عن الباقى؟ لقد صاح بينز وموتو: «أعطه واحدة زيادة! إنه يبكى». لكن فاركوار رفض قائلاً: إنها مجرد دموع العين، إنها عند كل شخص. وشد كُمَّ قميص بالمر بحرص وبهدوء على الجرح وقال: «عيد ميلاد سعيد أيها الصبى». وسار مبتعدًا. وفى هذه اللحظة أحب بالمر فاركوار.

هل هو بخير؟

قال: «بالتأكيد». وضحك بصوت خافت لمجرد أن يثبت ذلك.

قالت أمه وقد وجهت صوتها إلى مكان ما خارج الحجرة: «إننى لست بخير. كان هؤلاء الصبية الأشقياء هنا فى حفل عيد ميلاده». قال والده: «بينز؟».

أجاب بالمر بسرور: «نعم بينز كان هنا. وموتو وهنرى».

هز والده رأسه. «إن هذا شخص رائع، بينز».

واصلت أمه الكلام: «صبية أشقياء ولا يحبون بالمر إلى هذا الحد. إنهم لم يهتموا به أبدًا، ولم يلعبوا معه مطلقًا».

اعترض بالمر قائلا: «إنهم يفعلون الآن. كانوا ينتظرون حتى أبلغ التاسعة».

تجاهلته والدته وقالت: «إنه يدعوهم، لكن لا يدعو دوروثى جروزيك الصغيرة». اندفعت نحوه قائلة: «ولم لا تدعو دوروثى؟».

«إنها بنت».

«إنها جارتك. إنها من أفضل أصدقائك».

ضحك بالمر بصوت عال، أحيانًا تحاول أمه أن تجعل من شىء ما حقيقة لمجرد أنها قالته. قال لها بصراحة: «إنها ليست كذلك. لو لم تكن تسكن فى شارعنا لما رأيتها أبدًا».

«إنها تدعوك إلى حفلاتها».

كان بالمر قد سئم ما تقول. لماذا تغضب أمه عندما يكون كل شىء جميلاً فى حياته؟

قال دونما أىّ تفكير: «وجهها يشبه سمكة!».

ضحك والده. اتسعت عينا أمه دهشة، ثم غيرت مجرى الحديث.

قالت لوالده: «واسم الشهرة، يجب أن تسمع اسم الشهرة الذى أطلقه هؤلاء الصبية عليه بمناسبة بلوغه التاسعة من عمره». ربتت على كتف بالمر قائلة: «أخبره».

قال بالمر: «سنوتس». لقد بدأ يشعر أنه اسم خاص به.

كرر والده: «سنوتس».

قالت والدته: «أى نوع من الأسماء هذا؟ من أين جاءوا به؟».

هز بالمر كتفه. لم يكن لديه أية فكرة، فى الحقيقة إن بينز هو الذى يطلق الأسماء. من الواضح أن اسمه جاء من ميله لأكل الفاصوليا المطهوة، فى أى وقت، ليلاً أو نهارًا. موتو؟ شىء غامض. لم يكن بالمر يعرف أى شىء تافه عن موتو. أما هنرى، فإنه يبدو اسمًا حقيقيًا أكثر منه اسم شهرة، لكن بالمر لم يستطع أن يتصور أن بينز يدع اسمًا حقيقيًا يبقى كما هو، لذلك فإنه يجب أن يكون لهنرى اسم آخر أيضًا.

كفّت أمه عن الكلام عندما أدركت أنها لن تتلقى إجابة من بالمر. وابتعدت وهى تُتمتم: «لم يعد لديه الإحساس الجميل الذى وُلد به».

قال والده: «حسنًا يا سنوتس. آسف أننى لم أقدمها لك فى الحفل الكبير. هاك هدية إن كنت تحتمل هدية أخرى». دلف إلى غرفة الطعام وأخرج هدية ملفوفة.

مزّق بالمر الورق ليظهر صندوق أحذية بالٍ قديم. لهث، أدرك ما سوف يحدث لكنه لم يستطع أن يصدق، رفع الغطاء».

«جنودك!».

قال والده: «إنهم لك الآن».

كانوا سبعة وعشرين جنديًّا عبارة عن دُمى من الرصاص، التى تظهر فى أماكن كثيرة من خلال اللون الأخضر الزيتونى. كان طول العسكرى بوصتين وكانت قديمة جدًّا. كانت الخوذات مسطحة قليلاً مثل سلطانية الشوربة. كان أول من لعب بهم الجد الأكبر لبالمر، ثم جده ومن بعده أبوه. لعب بالمر بهم مرات كثيرة، لكن بعد إذن والده. كان يعتبرهم أكثر الأشياء قيمة بالمنزل. احتفظ والده بهم فى صندوق أحذية خلف حقيبة سفر فى الخزانة.

أضاف والده: «هو ذاك إذا وعدت أن تعتنى بهم وأن تعطيهم لابنك يومًا ما».

أومأ بالمر برأسه متسائلاً: «هل أستطيع الاحتفاظ بها فى حجرتى؟».

«بالتأكيد تستطيع».

فكّر بالمر فى تلك الليلة ـ وهو فى حجرته ـ عن مكان يخبئ فيه الدمى العساكر السبعة والعشرين. اختار أعلى رفّ فى الخِزانة،

والذى لا يستطيع الوصول إليه دون الوقوف على كرسيه. كان عليه أن يحمل الكرسى، ويحاول الوصول بيده اليمنى. كانت ذراعه اليسرى غير ذات فائدة. كان يشعر بوخز خفيف فى أطراف أصابعه. وعند العشاء وضعها على المائدة وظل هناك. ظلت أمه تحملق فيها.

كان يشعر أحيانًا أن ذراعه خَدِرة[1]، كما لو كان نائمًا عليها. لكنها كانت تؤلمه غالبًا.. وجد أنه لو شغل تفكيره فلن يشعر بالألم كثيرًا. قرأ كتابًا، شاهد التليفزيون، تفحص هداياه، وفكر فى ذلك اليوم. يا له من يوم!.

عيد ميلاد جديد، أصدقاء جُدد. مشاعره مليئة بالإثارة والاعتزاز بالنفس والانتماء. كانت أمه مخطئة فى حكمها على الصبية الذين لم يلعبوا معه أبدًا. كان عليه أن يتغلب على أمور كثيرة، هذا كل ما فى الأمر. كونه الأصغر وكونه الأقصر. واسمه الأول غير العادى، كانوا يغيظونه هناك. لكن كل ذلك انتهى الآن. ألقى بنفسه على الفراش وابتسم وهو ينظر إلى السقف. كانت الحياة جميلة.

وبينما كان ينظف أسنانه تلك الليلة بالفرشاة، نظر بالمر إلى

(1) خدرة: يكاد لا يشعر به.

وجهه فى المرآة. وفجأة بدأ يبكى. بكى بشدة لدرجة أنه لم يستطع إنهاء تنظيف أسنانه. جرى إلى حجرته غاضبًا، وقد صُدم لهذه النهاية غير المتوقعة لهذا اليوم المثالى. يبكى بصوتٍ عالٍ، يلهث ليتنفس، ألقى بنفسه على الفراش وغطى وجهه بالوسادة.

لم يلحظ عدم إطفاء نور السقف، إنه المصباح المخصص لليل مضاء أيضًا. ولم يلحظ أنه قد كف عن البكاء. وفى منامه سمع صدى صوت قادم من ماسورة المدفع المظلمة الطويلة: «لم تبق لديك أعياد ميلاد». واستيقظ فى الصباح فجأة على رفرفة أجنحة.

الفصل السابع

كانت الأسابيع التالية أشبه ما تكون باستعراض عسكرى بالنسبة لبالمر، وأنه هو قائده الأعلى. شعر بالمر بنفسه وكأنه يسير فى وسط شارع عريض تكتنفه الأشجار والجماهير تحييه على الجانبين.

انطلقت صيحات «هاى بالمر» و«هاى سنوتس» أثناء الصيف. جاء الأولاد من البيوت المحيطة لرؤية ذراعه. يجتمع الأولاد الصغار حوله أربعة أو خمسة فى المرة. يرفع كُمّه، قائلين «رائع!» وقد يمد البعض يده للمسها. ويسحب الخائفون أيديهم كما لو كانوا يسحبونها من موقد ساخن، وقد يرتعدون ويطلقون أصواتا حادة قصيرة.

لم يلمسها الأولاد الكبار. كانوا ينظرون إليها فقط. ويهزون رءوسهم فى احترام شديد، متذكرين معاملاتهم، أما بالمر فقد شعر بالاعتزاز بنفسه.

وفى غضون ثلاثة أيام استطاع أن يرفع يده اليمنى إلى أنفه، وبعد أسبوع استطاع أن يرفع يده أعلى من رأسه. كان يشعر

بالأسف لأنه كان يُشفى سريعًا، كان يستمتع بأن يعرض ذراعه للأطفال متباهيا قائلاً: «انظروا، لا أستطيع رفع ذراعى أعلى من ذلك» وكان يستمتع بالدهشة البادية فى عيونهم.

تمنى بالمر ألا تزول الكدمة، وتمنى أيضًا أن يجعلهم يشعرون بالوخز فى أطراف أصابعه. وفى أحد الأيام لوّن الكدمة التى أخذت فى الاختفاء بقلم ألوان أرجوانى.

افتقد شخصًا واحدًا أثناء استعراضه العسكرى التخيّلى فى الشارع العريض الذى تكتنفه الأشجار: إنها دوروثى جروزيك: ولسبب ما شعر بالضيق.

رآها عدة مرّات وهى تلعب الحجلة أمام منزلها. كانت ماهرة فى اللعب بمفردها مثل بالمر. بالطبع، لقد أصبح لبالمر رفاق الآن، لذا فلن يلعب وحده ثانية أبدًا، حتى لو أراد أن يفعل ذلك. وتساءل عما إذا كانت البنات تتجمع مثل الصبيان.

فى المرات الأولى التى مر فيها بالمر بدوروثى لم ترفع بصرها عن لعبة الحجلة. لم يكن هذا هو المعتاد؛ فقد كانت دائمًا تقول له أهلاً.

لذا قالها بالمر فى المرة التالية: «أهلاً!»

استمرت دوروثى تنط على قدم واحدة، وشعرها البنى المصفف على شكل ذيل حصان يتمايل معها.

لعلها غاضبة لأننى لم أدعها إلى حفلة عيد ميلادى، هكذا اعتقد بالمر وهذا مفهوم، لكنه كان بالإضافة إلى الموضوع المهم. كان الأهم ـ بالنسبة له ـ أن يجعلها تنظر إلى الكدمة. وكلما زاد عدم رغبتها فى النظر إلى الكدمة، زاد إصرار بالمر على ذلك.

فى النهاية، لف كمَّ قميصه الأيسر إلى أعلى حتى الكتف وألقى بنفسه على درجات السلم الأمامى لمنزلهم. تجاهلته واستمرت فى اللعب، وهى تقذف بكيس أخضر مملوء بحبات الفول إلى المربعات المرقّمة بالطباشير. فكّر أخيرًا أن يقول شيئًا مسليًّا: «من الفائز؟».

لم تقل شيئًا. قذفت بالكيس إلى أبعد مربع وبدأت تنط على الأرض وإلى الخلف. قذفت الكيس ثانية، وعندما بدا أنها لن تتكلم أبدا، قالت: «شكرًا لدعوتك لى لحفلة عيد ميلادك».

لم يكن لما قالته معنى ولكن بالمر كان توّاقًا لسماع صوتها فقال: «كانوا جميعا أولادًا».

قالت باستنكار: «حسنًا».

كان يدهشه أحيانًا أن هذه الفتاة التى اجتازت لتوها الصف الثالث تجعله يشعر أنه ضئيل جدًّا. استمرت فى النط.

قال: «هل سمعت اسمى الجديد؟»

لم تُجب، ولم ترفع بصرها تجاهه.

«إنه سنوتس».

أصدرت صوتًا من أنفها يعبر عن عدم رضاها، ثم سرعان ما صار وجهها جامدًا بلا تعبير.

التفت بالمر إلى أن جعل ذراعه اليسرى أمامها مباشرة، وهكذا لن تستطيع أن تتجنبه.

«لقد نلت المعاملة أيضًا». استمرت فى النط. قال: «لم أستطع أن أحرك ذراعى إلى أعلى مدة ثلاثة أيام. أتريدين أن تشاهدى كدمتى؟». لم تنظر إليه. لم ترتفع عيناها عن الكيس الأخضر لبذور الفول.

وقف. ابتسم. «هل تريدين لمسها».

تصرفت دوروثى وكأن بالمر غير موجود أصلاً.

جرى بعيدا ووجد آخرين يتعجبون من كدمته. لعب مع شلة أصدقائه وعندما بدأوا فى الاستهزاء بدوروثى، لم يشعر أنه آسف من قبل كما كان الآن. نادَوْها «فيش فيس» وسخروا من اسمها وركلوا كيس حبات الفول بعيدا عن مربعات لعبة الحجلة. وقف بالمر فى الخلف وابتسم ابتسامة ماكرة. «هذا درس لك، دوروثى جروزيك».

فى ذات الوقت، سببت له ارتباكًا. لم يحدث أن رفعت عينيها إلى من أزعجوها أو ردّت إهاناتهم. لم تجر إلى منزلها. لم تبكِ. أىٌّ نوع من البنات هذه؟ ظلت تلعب الحجلة، كما لو كانت بمفردها.

لم ير بينز ما يجعله يستمر فى لهوه، وهكذا ابتعدوا جميعًا.

فى الأسبوع الثالث بعد «المعاملة»، وصل بالمر إلى نهاية موكبه التخيلى. تضاءلت الكدمة تدريجيًّا، وأصبحت مجرد بقعة باهتة ضاربة إلى الصفرة، وذهب الجميع إلى بيوتهم. لكن شيئًا ما ظل باقيًا. أدرك بالمر معناه.

كان هناك طوال الوقت، صامتًا، يمكن رؤيته بالكاد بين الجماهير المبتهجة، وميض من الريش الأسود من آن لآخر، وعين برتقالية تنظر.

بينما كان بالمر يركل كرة القدم فى الطريق، كان يشعر أنها تختبئ فى المداخل الظليلة، خلف النوافذ. لم ينظر. شعر أنها تخرج من بين الظلال، وأن ضوء الشمس على مؤخرة رأسه تحول إلى صقيع. كانت خلفه، التقط كرته وجرى، لكنه لم يستطع الفرار من الزمن.

جاء الأسبوع الأول من شهر أغسطس، لقد حان موعد مهرجان الأسرة.

الفصل الثامن

«مهرجان الأسرة».

يا له من اسم جميل. وكم كان دائمًا وقتًا جميلاً، أسبوع من مسابقات لطيفة وألعاب الكرة الليّنة وسباقات مثيرة وسيارات كبيرة الحجم، وموسيقى، وشواء، وغزل البنات، وصيد الحمام.

لطالما تمنى بالمر أن يتوقف مهرجان الأسرة يوم الجمعة. لكن ذلك لم يحدث. بدأ يوم الإثنين وانتهى يوم السبت. وذلك السبت تحديدًا كان أول يوم سبت فى شهر أغسطس، بعد شهر من عيد ميلاده وكان أسوأ أيام السنة.

فى الليلة السابقة، كانت تُسمع أصوات الشاحنات فى الشارع حاملة أقفاصًا خشبية من محطة السكك الحديدية القديمة إلى ملعب كرة القدم. كانت الأقفاص تحمل خمسة آلاف حمامة.

فى ذلك اليوم بالتحديد، لم ير بالمر حمامة فى مدينته. سمع أن بعضها وقع فى شراك بفناء محطة السكك الحديدية بالمدينة الكبيرة على بعد مائة ميل إلى الشرق، أما العدد الباقى فقد تم شراؤه.

ومن بين الأسئلة الكثيرة التى حيّرت بالمر، لماذا يدفع الإنسان ثمن حمامة لمجرد أن يطلق عليها النار؟

عندما كان بالمر فى الرابعة من عمره، بدأ أول عيد للحمام. مازال يحمل فى ذاكرته بعد خمس سنوات أحداثا بعينها. الطيور التى فى السماء، ما عادت تطير، فقط ريش يرفرف، شفاه وأصابع حمراء، رجل مبتهج، بقايا دجاج مشوى، ورجل يرتدى قبعة بيسبول زاهية اللون القرنفلى، ورائحة دخان البنادق بالساحة.

وأهم تلك الذكريات هى الحمامة، الحمامة التى أسرعت عبر العشب المائل كما كان ينطقها بالمر آنذاك، كما لو كانت إحدى رجليها قد قطعت، مسرعة، تعرج، ترتعد فى حلقات حمقاء، تتمايل مثل مركب شراعى تعرّض لعاصفة، يتعقبها ولد، يجرى ويحاول أن يمسكها، يضحك الولد، الناس يضحكون، لكن بالمر الصغير كان يفكر: لعل الولد يريد أن يأخذها لتصبح حيوانًا أليفًا. كانت الحمامة قادمة فى ذلك الطريق، تتخبط وتحاول أن تعتدل، تعرج فى اتجاه الناس، رأسها يتمايل، على مسار منحنٍ. وكان الناس يصرخون وينادون: «العصار! العصار!» والولد يتعقبها ومن المؤكد أن الولد أمسك بها. أمسك بتلك الحمامة العرجاء أمام بالمر مباشرة. نظرت الحمامة بعينها إلى بالمر وكانت عيناها برتقاليتين،

وصفق الجميع وكذلك صفّق بالمر وضحك وقال بصوت عالٍ: «رائع!» وأطبق الولد بيديه على رقبة الحمامة ولوى يديه بسرعة ــ هكذا ــ وسمع بالمر صوتا ضعيفاً، كما لو كان شخصًا يخطو فوق فرع شجرة صغير. وعندما رفع الولد إحدى يديه تدلى رأس الحمامة نحو الحشائش الخضراء، تدلت بطريقة كئيبة، رغم أن عين الحمامة ظلت مستديرة وبرتقالية.

التفت بالمر ونظر إلى أمه وقال: «لماذا يفعل ذلك؟» فقالت أمه: «ليخلص الحمامة من بؤسها».

سأل بالمر أمه: «هل كانت الحمامة فى بؤس؟»

قالت: «نعم».

قال بالمر: «لماذا؟»

لم ترد أمه. نظرت أمه إلى السماء قائلة «لأنها كانت تمشى مائلة غير متوازنة».

ابتسمت ابتسامة رقيقة وأومأت رأسها قائلة: «نعم».

«هل كان الولد يريد أن يحتفظ بالحمامة كحيوان أليف؟».

ظلت أمه تنظر إلى السماء، ظلت على صمتها لا ترد. بدأ بالمر يشم رائحة كريهة فى الهواء. فجأة، أمسكت أمه بيده وشدته بعيدًا. وبينما كانا يشقان طريقهما عبر الجموع، شعر بالمر من وجوه

الناس السعيدة والصيحات والضحك والأصابع الحمراء بسبب صلصة الشواء بأنه يغادر حفلاً.

عرف بالمر فيما بعد أن الولد أُطلق عليه اسم «العصار». كانت مهنته أن يخلص الحمام الجريح من بؤسه.

ظل بالمر طوال العام التالى يفكر كثيرًا فيما حدث. تساءل: «إذا كانوا يهتمون بالحمام ويريدون تخليصه من بؤسه، فلماذا لا يتركونه يطير بعيدًا؟».

لم يكن لدى والدة بالمر إجابة لمثل هذه الأسئلة، لذا فقد فكّر فيها بالمر زيادة وخَلُص إلى أن جميع الحمام يجب أن يكون بائسًا، سواء جُرِح أو لا، وهذا سبب وجوب صيده. وربما يعرف الحمام ذلك. ربما عند فتح الصناديق طار الحمام كله فى السماء فوق ملعب كرة القدم، لم يحاول الطيران بعيدًا على الإطلاق. لربما جعلوا من أنفسهم هدفًا للصيادين بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكأنهم يقولون: «ها نحن، خلّصونا من بؤسنا».

كم هو أمر محزن أن تكون حمامة. وكم هو لطيف من الناس ألا يتأخروا عن تقديم المساعدة. يصيدون الحمام ويفصلون رقبته. تخيّل بالمر أنهم قد يلجأون إلى اللكمات والمدافع اليدوية والحِراب أو أى شىء يضع نهاية لبؤس الطائر المسكين. وخمّن بالمر أن ذلك

هو سبب سعادة الناس؛ لأن كل رأس ذى عين برتقالية يتدلى يعنى أن يقل عدد المخلوقات البائسة التى يشعرون بالحزن بسببها. يا إلهى، فكّر بالمر وقد علت وجهه ابتسامة أنه يجب عليه أن يملأ البيت بالحمام.

كان على رف المدفأة بحجرة القراءة فى منزل بالمر تمثال ذهبى جميل لحمامة، تحته لوحة لامعة منحوت عليها بعض الكلمات. لم يستطع بالمر قراءتها، لذا تظاهر بأن الكلمات تقول: «تكريما لجميع الحمام، فإن هذا البيت يحبك».

لكن الأسئلة لم تتوقف. رفض أن يكون قتل الحمام وتخليصه من بؤسه نفس الشىء. فكر بالمر فى البؤس، وبدا له أن بندقية الرش ليست الطريقة الوحيدة لإنهائه. فمثلا، عندما يكون بالمر مبتئسًا، يدنو منه والداه ويمسحان دموعه. وعندما يخلص أحدهما بالمر من بؤسه فإنهم لا يطلقان عليه الرصاص، بل يقدمان له بعض الكعك. لماذا إذن يحضر الناس البنادق بدلا من الكعك المُحلَّى فى يوم عيد الحمام؟

إنه أمر محيّر.

سأل بالمر أمه ذات يوم: «هل كان أبى عصّارًا؟».

قالت بعد دقيقة: «من الأفضل أن تسأل أباك».

وهكذا سأل أباه: «بابا، هل كنت يومًا عصارًا؟».

نظر أبوه إليه وقال: «نعم».

«هل سأكون عصارًا أيضا؟».

أومأ أبوه رأسه بسرعة وقال: «بالتأكيد أيها الولد الكبير».

بالتأكيد.

ظل بالمر ينطقها مرارًا فى الأيام التالية. بالتأكيد.

سمع أن الأولاد يصبحون عصارين عندما يبلغون العاشرة.

الفصل التاسع

حضر بالمر ثانى عيد للحمام بالنسبة له مع دوروثى جروزيك وعائلتها، حيث كانت أمه مشغولة بأمور أخرى. كان أول عيد تشهده دوروثى. أشارت إلى الأقفاص الخشبية الكثيرة فى أقصى طرف الملعب. سألت بالمر: «لأى غرض أُعِدَّت؟»

قال لها: «ذلك المكان الذى يوجد به الحمام».

قالت: «ماذا يفعل الحمام هناك؟»

قال لها بالمر: «ينتظر الخروج» شعر كأنه محترف كبير يزود الصغيرة بالمعلومات الوثيقة. «يخرجون من الأقفاص الكبيرة إلى تلك الأقفاص الصغيرة البيضاء هناك. يحتوى كل قفص أبيض صغير على خمس حمامات. يشد شخص ما خيطًا فينفتح الباب وتطير حمامة خارج القفص» سبق أن أخبره أبوه بهذه الأشياء. «حذّرى كم عدد الحمام هناك؟».

فكرت دوروثى قليلاً وقالت: «مائة».

ابتسم بالمر معتدًّا بنفسه وقال: «خمسة آلاف».

فغرت دوروثى جروزيك فاها وأدارت عينيها إلى أعلى. كانت تتخيل سماء مغطاة بالحمام وقالت: «ثم ماذا؟» رد بالمر «يصطادونها».

لم تتحرك دوروثى جروزيك فترة طويلة. بدت كأنها تنتظر السماء أن تسقط مطرًا فى فمها. وعندما أدارت عينيها ثانية إلى بالمر، تمنى لو لم يكن بجانبها.

قالت: «ماذا؟»

كرر: «يصطادونها». كانت الكلمات مريرة باهتة. كانت هناك طريقة واحدة للتخلص من هذا الطعم السيئ، كأن الكلمات تتدفق من فمه أكثر وأكثر. «إنهم يطلقون بنادقهم طاخ، صاخ، طاخ، بوم، بوم، بوم، يفتحون أحد الأقفاص فتطير الحمامة خارجةً وينطلق صوت البنادق بوم! ويموت الطائر. رفع بالمر يده عاليًا فوق رأسه وأنزلها إلى الأرض ليشرح لها، ولكى يكون الكلام معبرًا، جرّب الصغير ما تعلّمه حديثًا. «ثم تخرج حمامة أخرى ـ بوم! وأخرى ـ بوم!» وبعد كل بوم! يأتى سقوط وصفير. ويهرع العصارون للحصول على الحمام، وإذا لم تكن الحمامة ميّتة، لوى العصار رقبتها يلف قبضتى يديه معًا ويلويهما. «هكذا» وأحدث صوت كسر فرع شجرة صغير.

أخذت دوروثى تجرى، تشق طريقها وسط الجماهير، وهى تثب بين أرجل الكبار وأمها خلفها. «عفوا... عفوا...».

شق بالمر طريقه بجهد إلى الجانب الخلفى للجماهير. كانت دوروثى تجرى بمحاذاة مناضد المنتزه، وكانت أمها تتعقبها. صاح بالمر: «إنهم يخلصونهم من بؤسهم: هذا هو كل ما فى الأمر! هذا هو كل ما فى الأمر!».

اكتشف أنه كان يبكى.

الفصل العاشر

بحلول العام التالى لم يعد بالمر يهتم بالمشاهدة. لذا كان يقضى يوم عيد الحمام فى ملعب الأطفال مع دوروثى جروزيك. كان صرير لعبة النواسة والمراجيح قد تداخل مع صوت بنادق الصيد. وعلى هذه المسافة بدا الصوت وكأنه فرقعة البالونات.

وبينما كانا على الأرجوحة، اقترب منهما ولد يدعى آرثر دودز. لم يطلق آرثر على نفسه اسم بينز بعد. كان يندفع بسرعة فى ملعب الأطفال عندما اكتشف وجود بالمر ودوروثى. تزحلق حتى توقف.

سألهما: «ماذا تفعلان؟»

قالت دوروثى: «إننا نتأرجح. ماذا ترى؟» لم تكن خائفة.

قال: «إنهم يصطادون الحمام». ظل آرثر واقفا فى اتجاه ملعب كرة القدم، وكان جسمه يرتعش. «انزلا!».

قالت دوروثى: «سنظل هنا».

كان بالمر سعيدًا أن دوروثى أجابته، لكن كان آرثر دودز متجهًا ناحيته مباشرة. زمجر «ما اسمك؟»

«بالمر».

«اسمك الأول؟».

«هذا اسمى الأول».

«أى نوع من الأسماء يكون؟».

هز كتفيه وتساءل: «ماذا تعنى بالمر؟».

اقترب آرثر دودز منهما. كانت أسنانه فى ذلك الوقت لا تزال لبنية، كانت ملوّنة مثلما ستصبح أسنانه الثانية.

قال: «ستأتيان».

لم يعرف بالمر ما يقول. نظر إلى دوروثى. وكانت هى تحملق فيه. وإلى حد ما أعطاه وجهها الإجابة. هز رأسه بالنفى.

اشتاط آرثر دودز غضبًا وانفجر قائلاً: «طفلة جبانة».

جذب سلسلة الأرجوحة بشدة لدرجة أن بالمر سقط على الأرض مثل راكب البرنق[1]. انصرف آرثر دودز وهو يقول بصوت منكر: «أنا عصّار، أنا عصّار! إننى ذاهب لأمسك على حمامة وأعصرها!».

وفعل.

وكما علم بالمر بالقصة فيما بعد، كان آرثر دودز مصدر إزعاج

(1) البرنق: جواد أمريكى قزم غير أو نصف مروض.

حقيقى فى ذلك اليوم. ظل يندفع إلى الملعب لتعقب الحمام الجريح، وفى نهاية الأمر طرده العصارون الحقيقيون. كان آرثر دودز مثل بالمر فى الخامسة من عمره فى ذلك الوقت.

وفى النهاية حصل على ما أراد. طائر مصاب بعيار من بندقية الرش، بدلا من أن يسقط على ملعب كرة القدم، اتجه نحو ساحة التنزه قبل أن يصل إلى الأرض. رآه آرثر وأسرع وراءه. سمع صراخ امرأة. لقد سقط الطائر مباشرة بجوار عربة طفلها ذات الفراش القرنفلى حيث كان نائمًا.

عند وصول آرثر هناك، كانت الحمامة على الأرض يتعقبها ستة أفراد يمشون بخطى بطيئة، يصرخون حول موائد المتنزه. انضم آرثر إلى المطاردة. صرخ الناس. تناثر السجق. اندفع آرثر عبر المائدة.

رفرفت الحمامة بجناحيها فوق المائدة، اصطدم بالمشروبات، محطمًا البيض وأمسك بأرجل الحمامة فسقطت فى وعاء سلطة الدجاج وحسب القصة، سدّد آرثر ذراعيه فى الهواء مثل بطل ملاكمة وصاح: «حصلت على واحدة» ثم لوى رقبتها أمام رواد المتنزه الذين بدت الدهشة فى أعينهم.

لم ينته آرثر دودز. تفاخر بالحمامة الميتة لدرجة أن أخذها إلى

البيت، لفها فى ورق صحيفة وخبّأها تحت سريره. كان يتقاضى من كل ولد ربع دولار نظير إلقاء نظرة عليها. ثم بدأت أمه تشم شيئًا وبعد قليل كان ما كان.

كان بالمر أيضًا يشم شيئًا من والده عندما يعود من عيد الحمام فكما يحدث غالبًا، يدس بالمر نفسه فى حضن والده، حيث أفضل مكان عنده فى العالم، وحيث يكون آمنًا من كل شيء. لكنه هذه الأيام يشم رائحة دخان البنادق الكريهة. وكلما مرّغ أنفه فى قميص والده أكثر، اشتم الرائحة أكثر.

ثم بدأ يشم الرائحة الكريهة حتى بعد انتهاء عيد الحمام. قد يحدث فى الصباح أثناء تواجده بالمدرسة أو بالليل وهو راقد فى فراشه. قد يحدث أيضا وهو فى حضن والده فى منتصف فصل الشتاء، بعد أن تكون بنادق الصيد قد وضعت فى صناديق مغلقة منذ شهور.

من المؤكد أن الرائحة ستجيء يوم عيد ميلاده. لم تفسد حفل عيد الميلاد، ولم تفسد حضن والده، لكنها غيّرت تلك الأشياء إلى الحد الذى جعلها لم تعد تبدو كما كانت من قبل.

تغيّرت أشياء أخرى. آرثر دودز أصبح بينز، وانضم إليه بيلى ناتولا الذى أصبح موتو، وكذلك ولد طويل جدًّا قدم المدينة

حديثًا يُعرف فقط باسم هنرى. أراد بالمر أن ينضم إليهم، لكنهم قالوا إنه صغير جدًّا حجمًا وسنًّا، وإن اسمه الأول اسم غريب وإنه يلعب مع البنات الصغيرات فى ذلك الوقت.

لم يكن ذلك حقيقة، فكلما كبر فى السن؛ قل لعبه مع دوروثى جروزيك. فعندما انتقل إلى الصف الأول تركها تلهو بدمية على سلم بيتها.

وفى السنة الثانية قال للأولاد: «إنها جارتى، هذا كل ما فى الأمر. لا أستطيع أن أتحمل ذلك، هلا استطعت؟ وعلى أية حال، ماذا أريد من تلميذة بالصف الأول؟ لكنهم لم يستمعوا إليه.

دعاهم بالمر لعيد ميلاده الثامن، لكن أيًّا منهم لم يحضر. لذلك اندفعت أمه إلى الشارع وسحبت دوروثى إلى مائدة غرفة الطعام، وغنى أبوه وأمه ودوروثى له أغنية «عيد ميلاد سعيد»، وكانت تعلو وجه أمه ابتسامة عريضة لكن عينيها كانتا حمراوتين.

فى ذلك الصيف انطلقت أسرة بالمر فى رحلة لقضاء الإجازة. توقفوا فى المدينة الكبيرة لمدة يوم. وحصلوا على خريطة من مركز الإعلام السياحى وذهبوا فى جولة إلى الأماكن التاريخية سيرًا على الأقدام.

كان الحمام فى كل مكان، على الأرصفة، الأرفف، ودرجات

السلالم، حتى أن بالمر شاهد واحدة تعبر الشارع مع حشد من الناس عندما أضاءت الإشارة الضوء الأخضر، وكأنها أحد المشاة. إن ذلك الحمام يختال فى جرأة، يطوف، يلتقط الحَب هنا وهناك. لم يبدُ عليه أقل قدر من خوف أو ميل للاعتذار. تصرف الحمام وكأنه من أهل المدينة، كما لو كانت مدينته كما هى لسكانها من البشر.

والناس بدورهم، لم يعروا اهتمامًا للحمائم، ظل بالمر يشد أبويه قائلاً: انظرا، ها هى ذى واحدة!... انظروا إلى تلك. لكن أهل المدينة تجاهلوها. لم يكن مع أحدهم بندقية صيد.

لولا الحمامة الجريحة التى لووا رقبتها أمامه عندما كان فى الرابعة، لكانت هذه أول مرة يرى فيها بالمر الطيور عن قرب. لقد سمع أن الحمائم طيور قذرة، ليست أكثر من فئران بأجنحة. نظر وأمعن النظر، لكن كل ما رأى كان طيورًا جميلة تطلق أصواتًا مميزة يغطى جسمها ريش لامع. وقد سُحر بصفة خاصة بطريقتها فى المشى. لا تقفز على قدم واحدة، مثل العصافير أو أبو الحناء لكنها تمشى، رجل مائلة للاحمرار أمام الرجل الأخرى، مثل البشر تمامًا. ومع كل خطوة تهز رءوسها، كما لو كانت تقول: «نعم. سوف أفعل. إننى أوافق. أنت مصيب». وكما رآها بالمر، فالحمامة طائر لطيف.

كانوا يمرون بحديقة ذات أشجار كثيرة ومقاعد طويلة عندما شاهد بالمر شيئا جعله يقف فى مكانه؛ رأى رجلا جالسًا على أحد هذه المقاعد مغطى بالحمام. كان الحمام على كتفيه، على رأسه، فى حِجره، يلتقط حبوبًا، يبدو أن الرجل قد سكبها على نفسه. كان الحمام يهدل والرجل يقهقه ـ أو هل كان الرجل يهدل والحمام يقهقه؟ من الصعب القول بذلك.

وعند عودته إلى البيت، خطر له أنه بما أنه يستطيع القراءة جيدًا الآن، يجب أن يلقى نظرة أخرى على الكلام المحفور على تمثال الحمامة الذهبية الموجودة بالخزانة. كانت العبارة: تقول:

جائزة أمهر الرماة

يوم الحمام

1989

أثناء وقوفه هناك أمام الحمامة الذهبية، شم رائحة دخان البنادق، وأدرك أن أباه كان من الرماة.

حينئذ بدأ بالمر يشعر بميل معين فى حياته. أصبح الزمن لوحة انزلاق، ينتظر فى نهايتها عيد ميلاده العاشر.

ظل بينز يتساءل: «هل ستصبح عصّارًا؟»

فى كل مرة ينظر فيها بالمر مباشرة إلى أسنان بينز متعددة الألوان يقول: «بالتأكيد» وفى كل مرة يقولها يشعر أن قلبه يدق.

من بين جميع التغيرات التى حدثت فى حياته، ظل شىء واحد كما هو. إنه شىء أدركه منذ عيد الحمام الثانى بالنسبة له، عندما جلس مع دوروثى جروزيك على الأرجوحة. لم يكن يريد أن يصبح عصّارًا.

الفصل الحادى عشر

هناك مناسبات كثيرة مثل أعياد حلوى غزل البنات، ليالى «عجلة فيريس». ولكن عيد الأسرة كان أفضل من الكريسماس وأطول منه. ما حدث فى ملعب الاتحاد الأمريكى للبيسبول فى الأسبوع الماضى، كان بمثابة أحد العجائب هذا الأسبوع. لأكثر من عشر مرات استكشف بالمر كل رحلة، كل كشك لبيع الطعام، كل أكشاك التسلية. أحبَّ طقطقة الزيت المستخدم فى طهى أصابع البطاطس والكعك المطهو على شكل قمع. أحب الصياح والطرطشة عندما تصيب إحدى الكرات العلامة المستهدفة، وفرقعة البالونات والجوائز الكبيرة التى تمنح فى عيد سانت بيرنارد ولعبة الدوامة، وأنوار النيون مثل الألعاب النارية فى الزجاجات، وبيت الرعب، والحلوى اللذيذة، والموز المغموس فى الشيكولاتة على عصا.

لم يكن هذا العام من حياة بالمر عامًا سعيدًا، ولا حتى عيد الأسرة. فرغم الصياح المَرِح والموسيقى، لم يستطع أن ينسى ملعب كرة القدم فى نهاية طرف الحديقة: صامتًا، منتظرًا. كانت العجلة

الحديدية تبدو أحيانًا ـ لدقائق ـ ثقيلة، تدنيه بشدة إلى يوم السبت وأصوات ورائحة دخان البنادق.

حاول أن يتجنب الأولاد، لكن لم يكن الأمر سهلاً، مثلما كان من قبل. أظهروا له احترامًا خاصًّا بعد المعاملة وغالبًا ما كانوا يأتون إليه. بدأ يغادر بيته من الباب الخلفى، وظلت عيناه تتطلع إلى العيد.

لم تظهر دوروثى له أى نوع من الاحترام. حتى لو أنه تلقى مائة معاملة ما أثّر ذلك فيها. إلا أن بالمر سامحها وتنبّه إلى أنها لا تزال بنتًا صغيرة لا تفهم من الحياة ما هو أبعد من مربعات الحجلة. وأيضا، كانت هناك ذكريات عيد الحمام الثانى الذى شاركته دوروثى إياه. وعندما قارب الأسبوع على الانتهاء، وعندما أسرع الأسبوع نحو يوم السبت بدأ يشعر أنه مهتم بها أكثر. لكنه عندما رأى وجه دوروثى متلألئًا فى أضواء النيون وناداها باسمها، رفعت أنفها إلى أعلى وانصرفت.

كان يجيد ركوب الدراجات. كان أبواه يعطيانه نقودًا كل يوم لينفقها، وعندما تنفد كان يأخذ من مدخراته الشخصية. كان يتمايل ويلف مثل الدوامة ويُسرع وينعطف فجأة ويندفع بسرعة بالغة. ويرتفع. وكلما اقترب يوم السبت، ركب الدراجة أكثر.

ظلت المجموعة، كلما التقى بهم مصادفة يقولون: «نراك يوم السبت يا سنوتس، الساعة السادسة» كان من المفترض أن يتقابلوا عند مدفع الحرب العالمية الأولى. لأن الصيد سوف يبدأ الساعة السابعة ويستمر طوال اليوم.

عندما كان بالمر صغيرًا، كانت هذه الصورة مصدر دهشة له. أصبح صيد الحمام هو الوسيلة التى يستطيع بها أن يعرف أكبر عدد حقيقى فى حياته: خمسة آلاف. لفترة طويلة كان الرقم خمسة آلاف يعنى عدد الحمام الذى يستطيع الفرد أن يصطاده فى يوم واحد، واحدة واحدة. وعندما كَبُر قليلاً اكتشف بالطبع المدافع الرشاشة والدبابات ومدافع البازوكا والقنابل.

سأل أباه يومًا: «لم لا تنسفهم وتخلصهم من بؤسهم مرة واحدة؟».

كان ذلك عندما شرح له أبوه كيفية سير العملية. أوضح له أن لهذه العملية فائدة أكثر من تخليص الحمام من بؤسه. قال: إنه يسمح فقط لمن يدفع نقودًا أن يصيد الحمام، وأن النقود تُستخدم فى إدخال تحسينات على الحديقة. وكما ترى، يمكنك أن تشكر حمامة على الأرجوحة الموجودة بملعب الأطفال.

ومنذ ذلك الحين ظل بالمر يشكر حمامة كلما تأرجح على أرجوحة.

أدرك بالمر أن بينز والأولاد قد قرروا البقاء طوال اليوم، منذ أول طلقة حتى تهبط آخر ريشة رمادية نحو الأرض. وعندما ذهب إلى فراشه ليلة الجمعة كان قد قرر ما ينوى عمله: يجب ألا يظهر عند المدفع. وإذا ما حضروا للسؤال يكون بالفراش متظاهرًا أنه مريض، سوف يخبرهم أنه كان ينوى الذهاب معهم، لكن أمه لم تسمح له.

شعر أنه أفضل. حُلّت المشكلة. ذهب إلى فراشه وقد علت وجهه ابتسامة.

الفصل الثانى عشر

رأى فى منامه أن الحمام قدم إلى المدينة بالملايين وليس خمسة آلاف فقط. ضغط الحمام بمنقاره على أطراف المدينة واقتلعها وطار بها بعيدا، كما لو كانت صورة لشجرة عيد الميلاد على مفرش مائدة.

لم يسمع سوى صوت رفرفة أجنحة الحمام. تساءل بالمر عن وجهته. يبدو أن الحمائم تطير تاركة الأرض وراءها. لم يكن أمامها أو حولها سوى فضاء أشد الليالى ظلمة. واستمر الحمام فى طيرانه.

شعر بالمر ببعض الدفء على وجهه. شق الظلام شعاع من الضوء. بدأ يقلق. هل كان الحمام متجهًا نحو الشمس؟ هل سيلقى الحمام به والمدينة كلها فى هذه الكرة النارية؟ أصبح الضوء أكثر بريقًا. كانت تحمله حمامة بمنقارها وتقهقه. تحرك وتلوَّى ليهرب.. حاول أن يصرخ، لكن بدلاً من أن يسمع صوته، سمع صوتًا آخر. «اقرصوه بشدة أكثر».

فتح بالمر عينيه. كان الضوء مبهرًا، ثم اختفى. وكان الظلام سائدًا. وكان المصباح المجاور للسرير مطفأ، ولم يكن وحده فى

الفراش. كان معه شخص فى الفراش! شرع فى الصراخ، لكن يدًا كممت فاه. أطلق شخص ما ضحكة عالية، زمجر شخص آخر قائلاً: «اسكت، سوف يسمعونك!». شم رائحة فاصوليا مطهية. عاود الضوء الظهور، كان ضوءًا خافتًا. أضاء وجهين. قال أحدهما: «اسكت الآن، يا سنوتس، حسنًا!» «نحن بينز وموتو. اطمئن».

أومأ بالمر برأسه، ورُفعت اليد من فوق فمه. ثم جلس.

سأل: «ماذا تفعلان هنا؟ كيف دخلتما؟» جاءه رد سؤاله عندما نظر إلى النافذة. كانت الستارة مرفوعة. كانت نافذة حجرته تعلو سقف الرواق الخلفى. من الممكن أن يكونا قد دخلا من النافذة.

عرف بعد ذلك أنهما جذباه بشدة من فراشه وأوقفاه على قدميه. همس بينز «هيّا، لدينا مكان لابد أن نذهب إليه».

لم يخطر ببال بالمر ألا يذهب. أدرك بعد زوال الصدمة مدى التكريم الذى مُنح إياه. لك أن تتخيل: منذ شهر كان هذان الولدان يتجاهلانه إضافة إلى مضايقته، والآن يتسللان إلى منزله ويصعدان معه إلى فراشه. بالمر لارو. شىء مدهش.

أضاء الأباجورة وارتدى ملابسه، وخرجوا من النافذة. وانزلقوا إلى أسفل على لوح خشبى استعاره بينز وموتو من موقع بناء.

قال بينز بصوت عال: «لنذهب».

قال بالمر: «إلى أين؟ لكن بينز كان قد مضى.

كانوا قلّة فى شوارع المدينة المظلمة. وطبقا لأوامر بينز، التزموا الطرق الضيقة، هرولوا على شكل طابور على رأسه بينز ثم موتو وأخيرًا بالمر. كان الصوت الوحيد صوت أحذيتهم المطاطية وهى تضرب الأرض.

لم يحدث من قبل، ولا حتى عشية رأس السنة، أن سهر بالمر إلى هذا الوقت المتأخر، هذا فضلا عن كونه بالخارج وبدون والديه. لم يكن لمثل بالمر أن يفعل ذلك. فقد كان دومًا ولدًا مطيعًا. كان ينكمش خوفًا مما سيقوله والداه إذا ما اكتشفا عصيانه.

لكن الشىء المثير فى الأمر أن تكريمه قد قضى على أى شعور آخر بينما يمشون الهوينى فى الطرق المظلمة الضيقة التى يكتنفها الصمت. تخيل نفسه دمية جندى مصنوع من الرصاص وقد دبّت فيها الحياة، تتبع الرقيب بينز والعسكرى موتو فى مهمة خلف خطوط العدو.

لقد أحب هؤلاء الأولاد. سوف يتبعهم إلى أى مكان. وتساءل ما المغامرات التى تنتظره فى الأيام والأعوام القادمة؟.

مشوا فى المتنزه إلى ما وراء مستودع الحرس الوطنى. اتجهوا إلى

زاوية، وكانوا عند محطة السكك الحديدية القديمة المزدحمة شم رائحة مثل رائحة الحيوانات ورأى فى ضوء القمر مبنى ثانيًا بنفس ارتفاع محطة السكك الحديدية وبطولها تقريبًا. لم يتذكر هذا المبنى الثانى. بدأ يسمع أصواتًا، ورأى أن المبنى الثانى لم يكن مبنى على الإطلاق. كان جبلاً من الأقفاص..... وهديل رقيق.

كانت بداخل الأقفاص خمسة آلاف حمامة.

توقف.

هرول بينز وموتو. صاحا ونبحا ورقصا رقصًا غريبًا أمام الأقفاص المكدسة. ظهر خيالهما بسبب ضوء القمر على الحفر الصغيرة فى أرض موقف السيارات القديم، وجعلا ذراعيهما مثل البنادق وصاحا بصوت عال: «بوم! بوم!» وشق سكون الليل ضجيج عال.

نادوا: «تقدم، يا سنوتس!»

التقطوا عصيًّا ومشوا محدثين جلبة بطول أضلاع أقفاص الحمام وقرعوا أضلاع الأقفاص كأنها طبول.

«سنوتس!».

لم يستطع بالمر حراكًا.

عشرة آلاف عين برتقالية أشعلت نارًا فى قلبه!

سمع صوتًا مزعجًا، فقد كانا يشقان جوانب أحد الأقفاص.. ما الذى ينويان فعله؟

كان بينز يصيح: «امسكها! امسكها!»

عشرة آلاف عين برتقالية.

«امسكها!»

صاح بالمر: «سأعود! يجب أن أذهب إلى الحمام!»

جرى. لم يستخدم الأزقة.. جرى فى وسط الشوارع، وفى وسط الأنوار. جرى مبتعدًا عن ضجيج الأقفاص، عشرة آلاف عين برتقالية تتبعه إلى المنزل، إلى الفراش، تحت ملاءة السرير، أثناء نومه.

عندما استيقظ صباح يوم السبت، سمع طرقات طفيفة على بُعد. أغلق نافذة حجرته. وأسدل الستارة، أحضر جهاز التليفزيون بجواره وأداره بصوت عال.

وغمرته السعادة لأنهما لم يأتيا إليه. ولكى يكون آمنا أخبر أمه أنه مريض ولزم الفراش طوال اليوم. نظرت إليه بشىء من الغرابة أول الأمر، ثم كانت لطيفة بقية اليوم، كما لو كان مريضًا. لم تحاول أن تجعله يفتح النافذة لأن الوقت كان شهر يوليو. فأدارت المروحة.

أمضى وقته فى القراءة ومشاهدة التليفزيون، وقطع من الجريدة الجزء المخصص لقصة «الخنفس بيلى» الهزلية ليضمها إلى مجموعته. شاركته أمه لعب بنك الحظ. ولم يلعب بعساكره.

فى كل مرة يهبط الضوء بخيوطه الذهبية على ظل النافذة، يسمع صوت جرس الباب فى الطابق السفلى، فتذهب أمه لترى من الطارق لم تقل من هناك ولم يسألها هو.

وعندما جاءت أمه لتقبله قبلة المساء، أغلقت التليفزيون وفتحت النافذة. وكان الليل ساكنًا.

نيبر

الفصل الثالث عشر

«إنها العاصفة الثلجية».

كانت تلك كلمات أمه وهى جالسة معه يطلاّن من نافذة غرفة المعيشة. كان والده يسميها عاصفة ثلجية عنيفة. بينما بالمر يسميها «الحظ العاثر».

كان من الممكن أن يتساقط الثلج يوم الكريسماس، يوم حصوله على زلاجته الجديدة. لكن لم يحدث. ولم يتساقط الثلج فى اليوم التالى أو أى يوم حتى نهاية العام. أيام العطلات ـ أيام بدون واجبات مدرسية ـ والأيام التى كان يمكن أن تكون مملوءة بالصفير أسفل تل ڤالنتين، ولكنها ملئت بالعبوس البغيض بدلاً من ذلك.

بدت الزلاجة الجديدة تقليدية: خشب لامع، والقطعتان الطويلتان الحمراوان اللتان تنزلق عليهما الزلاجة والمقودان، ولم تعد تلائم سجادة حجرة المعيشة أكثر مما تلائم الإسطبل.

يوم رأس السنة، قال والد بالمر له: «تعرف، أشعر أن الطقس يتلاعب بالناس. فى كل مرة أقرر ألا آخذ فيها الشمسية، يهطل المطر، وقد يتساقط الثلج بنفس الطريقة، ربما نلهو به.. لم لا تحاول أن تدع الزلاجة جانبًا، كما لو كان الجو ربيعًا وينتهى التزلّج لباقى العام؟».

لم يكن لدى بالمر فكرة أفضل؛ لذلك سحب الزلاجة إلى الطابق السفلى، وأضاف إليها لمسات من عنده.. خلع قميصه، مسح جبينه وقال: «رائع، من المؤكد أن الجو حار هذه الأيام، لا أستطيع الانتظار كى أذهب للسباحة».

وضع الزلاجة فى الركن البعيد المعتم. وقال: «بالتأكيد لن نحتاج لهذا الشىء»، وغطّاها بغطاء قديم، وكدّس فوقها صناديق من الكرتون وحيّاها قائلاً: «وداعًا أيها الصديق القديم»، وانصرف.

كان الوقت عصرًا، وفى وقت العشاء نظر إلى الخارج، لم يستطع بعد الغروب أن يرى نجومًا، وعندما بلغت الساعة السابعة كانت بداية تساقط رقائق الثلج فوقف عند الباب الرئيسى وصاح: «الثلج!»، وأعاد الزلاجة إلى الطابق العلوى.

كان اليوم التالى آخر أيام العطلة المدرسية، وكان يتوقع أن يكون الجو ساكنا والثلج يتساقط وفى انتظار الزلاجات.. بدلا من ذلك، استيقظ على عاصفة ثلجية عنيفة تضرب لوح زجاج النافذة، نظر إلى الخارج، فبدت له الدنيا وكأنها تحولت إلى ثلج يفور، لم يستطع رؤية نهاية الفناء الخلفى، وجرى إلى الطابق السفلى، كانت هناك سيارة مغروزة فى الثلج وقد جنحت على رصيف الشارع، اندفعت الريح غاضبة ناحية المنزل فأخافته.

بل إن أمه ارتجفت بجانبه وهى تردد: «إنها عاصفة رهيبة فعلاً».
قال بالمر غاضبًا: «ربما تكون أيضًا قد حطمت زلاجتى».

لفَّت أمه ذراعها حوله وقالت: «حسنا، انظر إلى الجانب المشرق. إذا كان الجو رديئًا جدًّا للتزلج اليوم، فمن المحتمل أن يكون يومًا سيئًا فى صباح الغد بالنسبة للحافلات، وعلى أية حال سيتساقط الثلج اليوم».

كانت على صواب. كان الثالث من يناير: يوم كاسحات الثلج وأحذية الثلج وكرات الثلج والزلاجات. بدا وكأن كل أطفال المدينة قد ذهبوا إلى تل ڤالنتين، وظل بالمر وبينز وموتو وهنرى طوال النهار يتزلقون على الزلاجة الجديدة ويعاودون التزلج نحو المنحدر كمجموعة رباعية.

فى هذا اليوم، وبينما تختفى الشمس القرمزية تحت سطح المنزل، جرّ صبى ـ ولد سعيد ومرهق ـ زلاجته عائدًا إلى البيت، وقبل النزول إلى غرفة الطعام لتناول العشاء، نظر بالمر للحظة من نافذة حجرة نومه، لم يعبأ كثيرًا بالمناظر الطبيعية، إلا أن المنظر بالخارج مسّ شيئًا ما بداخله، ظهرت شمس الغروب وقد جمعت ضوءها الجميل فوق الثلج المتجمد؛ لدرجة أن أجزاء المنزل العادية والفناء الخلفى ظهرت كصحراء أرجوانية فى لحظة الغروب،

وعندما وقعت عيناه على سقف الشرفة خارج النافذة، شاهد آثار أقدام طائر محفورة فى الثلج.

كان الشىء الجميل هو أنه لم يكن لدى بالمر أى واجب منزلى فى إجازة الكريسماس، وإلا فما كان يستطيع إتمامه. كان نائما نوما عميقا فى الثامنة وظل هكذا إلى أن سمع نقرًا.

كان هذا شيئًا غير عادى، لم تكن أمه لتزعجه أبدا وتدق الباب فى الصباح، بل تدخل مباشرة، قال ومازالت عيناه مغلقتين وصوته يُسمع بالكاد: «من هناك؟».

لم يتلق إجابة.

فتح عينيه وكان ضوء النهار ساطعًا: «ادخل».

لم يفتح أحد الباب.

هل كان يحلم؟

تكرر النقر، لم يكن آتيًا من الباب، كان آتيًا من النافذة.

الأولاد!

استيقظ بالمر بسرعة.. لماذا يأتى الأولاد الآن، فى الصباح، قبل الذهاب إلى المدرسة؟! نهض من الفراش، رفع ستارة النافذة وتجمد. لم يكن بينز. لم يكن موتو. بل كان طائرًا وبالتحديد حمامة.

الفصل الرابع عشر

أو هل كان...؟

كثيرًا ما كان بالمر يحلم بالحمام؛ لذلك اعتقد أن ذلك مجرد حلم، أسدل الستارة وتجوّل بالحجرة، ركل «شبشبه» إلى الجانب الآخر من الحجرة، التقط كرة السلة المطاطية وقذف بعض الرميات الخطافية فى الشبكة المعلقة خلف باب حجرته، عاد إلى النافذة، ورفع أسفل الستارة بمقدار بوصة ونظر خِلسةً حيث شاهد رِجلين مثل أرجل الديك الرومى صغيرتين لونهما قرنفلى، فوقهما جسم ممتلئ مغطى بالريش الرمادى، رفع الستارة بالكامل.

لم يكن حُلمًا.

صفق بيديه وهمس: «شوشو»؛ لترويع الطائر.

نقر الطائر على زجاج النافذة.

كل ما يحتاج إليه بالمر أن يُرى بصحبة حمامة، ولسوف يلوى بينز رقبة كل منهما.

«اذهب! اذهب!».

نقر الطائر النافذة كما لو كان يرد بلغة الحمام.

رفع بالمر الستارة تمامًا، وقال:

يا لها من حمامة حمقاء، أمامها مليون مدينة فى البلد كلها لتختار منها، وهذا الطائر الأحمق يختار تلك المدينة التى تطلق الرصاص على خمسة آلاف منها كل عام، ويختار أيضًا منزلنا من بين جميع المنازل فى المدينة.

فُتح الباب! أدخلت أمه رأسها دهشة وقالت: «هل استيقظت؟»

استطاع أن يقول: «استيقظت لتوى. لقد سمعتك قادمة».

أُغلق الباب.

قام بالمر فى ذلك الصباح بإنجاز كل شىء على وجه السرعة، لم يستطع الانتظار حتى يخرج من المنزل. كان عند الزاوية قبل موعده اليومى مع الأولاد بعشر دقائق.

كانوا على بُعد بنايتين عندما شاهدوه. لوّحوا له بشدة وصرخوا «سنوتس! سنوتس!» وجاءوه عَدّوًا. ألقوا على بعضهم كرات الثلج وكل منهم يحاول الوصول إليه قبل الآخرين، فدمعت عينا بالمر من الفرح، وقهقه عاليا وشعر بسعادة بالغة.

أصبح سيرهم إلى المدرسة حربا طويلة بكرات الثلج، ولاحظ بينز أن دوروثى جروزيك كانت تسير وراءهم طوال الطريق.

صرخ: «كمين للعدو!. هجوم مضاد!».

أطلق الرفاق الأربعة قذائفهم الثلجية عليها. أحنت ظهرها وانفجرت كرات الثلج على ظهر معطفها الأحمر. لا يتذكر بالمر أنه رأى هذا المعطف من قبل واعتقد أنها اشترته للكريسماس، بينما كان يكور الكرات ويقذفها بها.

صرخ بينز: «بارجة نيران المدفعية!»

أطلق بالمر قذائف الثلج دون تحفظ. لم يكلمها إلا بالكاد منذ الصيف، واكتشف أنه لا مكان للأولاد ودوروثى معًا فى حياته، لم يختلطوا مثل زبدة الفول السودانى والمخلل. كما لو أن كل شىء يحبه الأطفال الأربعة، كل شىء يؤيدونه، لم تكن هى تحبه، رآها أخيرًا على حقيقتها. لم تضحك أبدًا، لم تَلْهُ أبدًا. حتى الآن، نظر إليها كمجرد طفلة ذليلة هناك، لم تحتج، لا صراخ، لا بكاء، لا فرار مثل أية طفلة عادية.

كانت تتصرف دائما كما لو كانت كبيرة.. ولأول مرة، منذ ثلاث سنوات، لم تدعه إلى حفلة عيد ميلادها قبل ثلاثة أسابيع.

دق جرس المدرسة.

وصاح بينز: «لنذهب!».

زاد بالمر وأطلق قذيفة أخيرة. فتناثر لون أبيض فوق المعطف الأحمر وجرى إلى الداخل مع الأولاد.

ظل طوال اليوم يفكر. ظل يفكر فى الحمامة، من أين جاءت؟ كيف أتت إلى هنا؟ هل قذفتها العاصفة؟ وأين ذهبت الآن؟

قال بالمر فى نفسه:

إلى أى مكان إلا بيتى.

وبعد انتهاء اليوم الدراسى نسى كل شىء عن الحمامة بسبب تساقط كرات الثلج وصرصرة الزلاجات على تل ڤالنتين. انغمس فى عمل كرات الثلج وتعثّر وضحك حتى تحوّل لون السماء جهة الغروب إلى برتقالى بلون النار، وعاد إلى البيت فى موعد العشاء تمامًا وقام بعمل واجبه المدرسى، ولعب بلعبة العساكر.

كانت السماء سوداء خارج نافذة حجرته، لم يشأ أن ينظر، لكن كان عليه أن ينظر، فأخذ كشاف والده، ورفع الستار ببطء.

لم يستطع أن يرى شيئا سوى انعكاس غرفته فى زجاج النافذة.

رفع ستارة النافذة وتسلل الضوء من غرفته إلى سقف السطح المغطى بالثلوج فشاهد آثار حمام ولكن لا أثر للحمام.

استند إلى الشباك، أضاء الكشاف وألقى نظرة شاملة على

السطح جيئة وذهابًا، من الزاوية إلى الزاوية الأخرى لم ير شيئًا سوى ثلج صامت.

أغلق النافذة، وأسدل الستارة وأطفأ الكشاف ثم جلس على حافة فراشه، وأخذ نفسًا عميقًا، شعر بعده أنه فى حالة أفضل.

الفصل الخامس عشر

نقر على الزجاج.

تكرر النقر فى الصباح التالى.

أوه.. لا.

وصل من الخارج متعبًا ورفع حافة الستارة قدر بوصتين وهناك رأى أكثر الطيور صمتًا فى العالم، يخفض رأسه الصامت فتحملق عينه البرتقالية الصغيرة ثانية إليه.

جثا بالمر عند النافذة وتحدث إلى العين البرتقالية: «ألا تريدين أن تعيشى؟» أنت أيها الطائر الصامت الغبى، اذهب وشاهد ملعب كرة القدم.. هذه المدينة تقتل الحمام، يوجد هنا ولد اسمه بينز، إنه صديقى، لكنه ليس صديقك إنه يكرهك إذا حدث ورآك فسوف يلوى رقبتك، وإذا لم تهتم بأمرك، فماذا عنى؟ ماذا تعتقدين عما سيحل بى إذا ظن الناس أن لدى حمامة؟».

. رفع الستارة، وارتفع رأس الطائر معها.

ضم يديه متوسلاً: «أرجوك ـ أرجوك عُد من حيث أتيت. لا نريدك هنا».

نقر الطائر على زجاج النافذة.

هز بالمر قبضته وشد الستارة إلى أسفل.

وفجأة أثناء تناول طعام الإفطار، وأثناء مضغه بعضًا من فطائر فرانكين أدرك المشكلة: الطعام... كان الطائر جائعًا.

لا بأس: سوف يطعم الطائر.

لكن.. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل سيأكل الطائر ويرحل بعيدًا إلى مدينة أخرى؟ أم يعود إلى نافذة حجرة النوم الخلفية حيث تناول آخر وجباته؟!

كان بالمر خائفًا، فهو يعرف الإجابة، كان يعلم أن الطعام يعد إغراءً قويًّا للحيوانات، لقد قالت له أمه عن قط ضال: «لا تطعمه، أو سيعاود الرجوع». إذا ما أطعم الحمامة فكأنما يدعوها مرة أخرى للرجوع، يدعوها لتلقَى كارثة.

لذا كان بالمر مندهشًا عندما وجد نفسه يحمل قطعًا من الفطائر ويصعد إلى الطابق العلوى، فتح نافذة حجرته، وألقى الفطائر على الثلج، الذى تكسّر وأخذ يلمع من ضوء الشمس.

اختفت الفطائر فى منقار الطائر الذى لم يستطع بالمر الكف عن مراقبته، كان هذا الطائر مثل الحمام الذى رآه فى المدينة يغلب عليه اللون الرمادى، مثل لون سبّورة عليها آثار الطباشير، ولكن كانت هناك ألوان أخرى، فبينما الطائر يلتقط الفطائر، عكس ضوء الشمس اللونين الأخضر والأرجوانى حول عنقه، وأخذ بالمر يعد الألوان: يغلب اللون الرمادى على الريش (واحد)، عيون برتقالية مزركشة بالأسود (اثنان وثلاثة) منقار أسمر ضارب للصفرة (أربعة)، أرجل وأقدام مائلة للون الأحمر (خمسة)، رقبة خضراء وأرجوانية (ستة وسبعة)، أطراف أجنحة بيضاء (ثمانية)، ثمانية! من يتبادر إلى ذهنه أن طائرًا بائسًا تافهًا يتمتع بكل هذه الألوان؟

جاءه صوت أمه عند الباب منزعجة: «بالمر! لقد اعتقدت أنك غادرت المنزل. ستبدأ المدرسة خلال عشر دقائق!»

أسدل الستارة، متمنيًا ألا تكون قد رأته، حمل ما يحتاج إليه وارتدى المعطف والحذاء ذا الرقبة، وأخذ كتبه وخرج مسرعًا.

كان مشدودًا وظل يسأل نفسه طوال اليوم: «لماذا أفعل ذلك؟»، لكنه كان يعرف السبب، ولكنه لم يشأ أن يُفضِي به حتى لنفسه.

أسرع عائدًا إلى البيت بعد المدرسة.

رآه الأولاد: «هاى، سنوتس، أين أنت ذاهب؟».

صاح: «البيت. فقد كلفتنى أمى بعمل».

كان يلهث عندما وصل إلى حجرته، رفع الستارة، اختفت الفطائر وكذلك الطائر.

أمعن النظر فى السماء الزرقاء الخالية، كيف كان شعوره؟ فكّر فى الحمامة وهى تطير فوق الأرض المغطاة بالثلوج؛ بحثًا عن نافذة أخرى فى غرفة نوم أخرى وشعر بأسف، فكّر فى أن الأولاد سوف يحضرون ولا يجدونه مع الحمامة، وشعر بالارتياح.

فتح النافذة ومحا آثار أقدام الطائر بقبضة يده، فلن يدرك أحد أنه كان هنا طائر منذ وقت قصير.

رقد فى فراشه.. لم يعد يشعر، كأنه يجرى، وتساءل عما إذا كان الحمام يهاجر نحو الجنوب فى الشتاء مثل الإوز، وتساءل عن طول المسافة التى قطعتها الحمامة حتى الآن، وأخذ يقول فى نفسه لابد أن شخصًا آخر يُطعم الحمامة الآن، وهنا شعر بالغيرة.

شعر بالمر أنه أصبح عصبى المزاج، مدركًا أنه يفكر فيها وكأنها ملكه الخاص ويا لها من فكرة خطيرة تحوم حوله.

هبَّ واقفًا، أنزل لعبة العساكر لكنه لم يشعر بأنه يلعب، فأعادها إلى مكانها، قذف بعض الكرات فى السلة، أدار التليفزيون وشاهده دون اكتراث بما يشاهد.

كان التليفزيون يعرض برنامج شارع سمسم وكوكى مونستر وهو يتقيأ الفتات فى كل أرجاء المكان ثم جزيرة جليجان.

كان الرجل المتكبر الثرثار يحاول شق ثمرة جوز هند بحذاء زوجته ذى الكعب العالى، وظل يدق حتى خطف جليجان ثمرة جوز الهند وشقّها بأن ضربها برأسه، لكن الطَّرْق استمر حتى خلال الإعلانات.

قفز بالمر إلى النافذة، كانت هناك. صاح بصوت عال: «الحمامة!».

أول ما خطر بباله هو أن يطعمها كى لا تذهب بعيدًا. حرّك يديه تعبيرًا عن ارتياحه، وناداها من النافذة: «انتظرى هناك.. انتظرى»، أسرع من الحجرة، كان يترك شيئًا متناثرًا حوله دائمًا: شرائح بطاطس ــ بسكويتًا مملحًا ــ نصف قطعة كيك، اندفع كالسهم إلى الخزانة، هبط تحت السرير، فتح الأدراج بعنف.. لا شىء.. لا أثر لفُتات الطعام.

كان الطائر ينقر على النافذة، وكان الضوء مازال بالخارج، لكنه يميل نحو الغروب.

صاح: «دقيقة.. ثانية».

يجب أن ينزل إلى الطابق السفلى؛ ليحضر شيئًا من المطبخ، أمر رائع، لكن... ماذا لو أن الطائر كَلَّ من الانتظار، ربما طار فى المنطقة المحيطة طوال اليوم، ووجد نافذة قدمت له طعامًا، ولم تدعه ينتظر طويلاً، وربما لو طار بعيدًا فى المرة القادمة فلن يعود أبدًا.

لم يفكر بالمر، لم يستعمل ذرّة من الحس الجيد الذى وُلد به، بل سار ببساطة عبر الغرفة وفتح النافذة.

الفصل السادس عشر

مشى الطائر إلى الداخل.

لم ينط. مشى. كما لو كان إنسانًا، مثل ذلك الحمام الذى رآه بالمدينة، يهز رأسه، مشغولاً، هادئًا، كما تحب أن تراه، وكأنه صاحب البيت.

مشى عبر عتبة النافذة على ظهر يد بالمر، وأخذ يتمشى على ذراعه اليمنى، وينقر شحمة أذن بالمر ـ «أوه»! ـ وينط فوق رأسه، وقف بالمر بلا حراك، خائفًا أن يحرك حتى عينيه، وكانت أطراف أصابع مدببة تتحرك وسط شعره، كان يشعر برغبة فى أن يحك رأسه.

أصدر الطائر صوتًا مثل ضحكة خافتة، وكأنه قد سمع لتوه نكتة، وطوى جناحه ومضى.. التفت بالمر ووجده يمشى عبر أرضية الغرفة، وعندما نظر إليها من الخلف كانت الحمامة تتهادى فى مشيتها، لم يعد الجوع مشكلتها.

كانت قصيرة ومكتنزة.

قفز الطائر على سرير بالمر وتجوَّل فوقه، ومع كل خطوة يومئ برأسه استحسانًا، وكأنه يقول: «إن الأمور جيدة حتى الآن،

أعـتـقـد أنـنـى سـوف أحب هـذا المكـان»، لم تـرمش عـينـاه البرتقاليتان أبدًا.

طار إلى خزانة الكتب، ومشى متمهّلاً فوق الكتب، ينقر الصفحات، نظر إلى التليفزيون لكنه لم يكن ليعير اهتمامًا للبرنامج المعروض، فقد كانت أخبار الساعة الخامسة، وخطا إلى الهوائى الدائرى عالى التردد مثل كلب السيرك داخل الطوق وسار فوق المزينة حيث كان يتهادى فوق صورة عائلة بالمر، والشمعة التى صنعها فى المدرسة وكل الأشياء الأخرى الموجودة بالحجرة، وانقضَّ على مجموعة الكتب الهزلية، وكان الانقضاض كارثة، فبمجرد أن لمست رِجل الطائر الكتب تمزق الغلاف العلوى الرقيق للكتب الهزلية، ووقع الطائر متكوّمًا على الأرض، وتخيل بالمر أنه يتأوّه، وخلّف الطائر وراءه بقعة بيضاء حيث هبط ثم سار حتى سلة القُمامة، صرخ بالمر ضاحكًا فى نفس اللحظة التى دخلت أمه فيها الغرفة تسأل: «ما الشىء المضحك لهذه الدرجة؟».. تجمَّد بالمر فى مكانه، وقال دون تفكير: «إنه برنامج فى التليفزيون.. لا شىء فى التليفزيون».

كانت سلة القمامة خلف الباب الذى فتحته أمه لتوها، وتمنى لو لم تنظر نحوها.

عبست وقالت: «لماذا النافذة مفتوحة؟ إن الجو بارد هنا».

قفز وأغلق النافذة وسأل: «هل حان وقت العشاء؟».. وقبل أن تجيب أغلق جهاز التليفزيون والمصباح، أغلق باب الحجرة وقفز السلالم إلى الطابق السفلى وصاح: «إننى أتضوَّرُ جوعًا! لنتناول الطعام!».

وعندما عاد بالمر إلى حجرته بعد العشاء لم ير الحمامة، جفَّت البقعة البيضاء على الأرض وتحولت إلى مسحوق، وظل يبحث عنها فى أركان الحجرة أسفل السرير، وأخيرًا وجدها فى الخزانة على الرف العلوى، كان راقدًا على بطنه، على صندوق الأحذية الذى يحتوى على لعبة العساكر، كانت عيناه مغلقتين.

أفرغ بالمر ملء جيبه من الفطائر على المكتب الذى يؤدِّى عليه الواجب المدرسى، خلع حذاءه المطاطى كى لا يُحدث ضوضاء عند تجوله فى الحجرة، أطفأ مصباح السقف وأشعل مصباح المكتب ثم نظف البقعة البيضاء التى على الأرض.

أدى واجبه المدرسى، وشاهد التليفزيون لبعض الوقت، ثم رتب بعض روايات «الخنفس بيلى» الهزلية فى مجموعة، تناول وجبته الخفيفة، قرأ فصلين من كتاب، فعل كل ما يقوم به فى ليلة يوم دراسى، غير أنه فعل كل شىء فى هدوء وشعور بالدفء، وأصبح

له مشاعره السرية، وأخذ ينظر كل خمس دقائق داخل الخزانة.

عندما جاءت أمه لتلقى عليه تحية المساء وتسأله عمّا إذا كان قد نظّف أسنانه، أدرك أنه حان الوقت لأن يتحدث إليها.

«ماما»

«نعم!»

كانت تقف عند مدخل الحجرة ويدها على المقبض.

«هل لى أن أطلب أن تطرقى الباب من الآن فصاعدًا، أقصد كلما أتيت إلى حجرتى؟».

حاول أن يقول ذلك بأقل درجات صوته ودون مبالاة، آملاً أن تتلقاه بنفس الطريقة، وتجيب بأن تهز كتفيها وتقول: «بالتأكيد، ليس هناك مشكلة؟».

هَاه: ومتى أخذت أمه الأمور هكذا بسهولة؟! وقفت تحملق فيه وهى عند المدخل، عيناها تطرف، ترتسم الدهشة على تعبيراتها كما لو كان قد تحدث إليها بلغة أجنبية، ثم علت وجهها ابتسامة باهتة وقالت: «حسنا».. لم تبال وهزت كتفها.

شىء مدهش.

ابتسمت وأغلقت الباب.

شيء مدهش للغاية، ماذا لو أنها لم تكن غير مبالية بما يقول كما فعلت؟ ماذا لو أنها جاءت متطفلة لتتسمع أخباره؟ كان يجب أن يقدم لها مبررًا لذلك.

فتح الباب، كانت فى منتصف السلم المؤدِّى للدور السفلى وقال: «تريدين أن تعرفى السبب؟».

توقفت، التفتت، نظرت إليه قائلة: «حسنا».

قال: «حسنا، كما تعرفين لقد كبرت الآن»، حملق فيها مندهشًا.. كيف استطاع أن يقول ذلك!!

قالتها له: «كما أنك ولد وأنا أنثى، وقد كبرت ولا يصح أن تراك الإناث فى ملابسك الداخلية، حتى ولو كانت هذه الأنثى أمك. لذا تريد تنبيها كى يكون لديك متسع من الوقت لتستر نفسك. أليس كذلك؟!

أومأ قائلا: «نعم».

«أريد أن أسألك سؤالاً واحدًا».

«ما هو؟»

«ألا ترى أنك مازلت صغيرًا على هذا الطلب؟».

«إننى ناضج جسمًا وعقلاً بالنسبة لسنِّى».

أومأت رأسها وهى تفكر تفكيرًا عميقًا: «أوه. فهمت».

بدأت تنزل السلم، توقفت، التفتت إليه وقالت: «ماذا لو أننى أطلقت صفيرًا وأنا فى طريقى إلى غرفتك إضافة إلى طَرْق الباب؟».

كانت عيناها متلألئتين.

«ماما».

«هل مازال بإمكانى غسيل ملابسك الداخلية؟».

أغلق بالمر الباب، وفى ثانية كان قد استغرق فى الضحك.

ذهب بالمر إلى فراشه تلك الليلة وعلى وجهه ابتسامة لأول مرة فى حياته.. فلم يكن هو النائم الوحيد فى حجرته ولم يضئ نور المصباح الجانبى.

الفصل السابع عشر

أيقظته قرصة فى شحمة أذنه، ففتح إحدى عينيه ليجد عينًا برتقالية صغيرة تحملق فيه.. كانت الحمامة على وسادته تناغى كأنها شخص يتغرغر بالمياه، وعضت شحمة أذنه ثانية.

«أوه».

ضرب بالمر بيده، وطارت الحمامة إلى أسفل السرير، وقال: «إننى مستيقظ، حسنًا» وتساءل إن كان وقاء الأذن القديم لا يزال موجودًا.

نقْر على الباب. «أمه»!

«بالمر».

«نعم». وألقى بالبطانية فوق الحمامة.

«حان وقت الاستيقاظ».

صدقت فى وعدها، فلم تدخل الحجرة.

«حسنًا. إننى مستيقظ».

ثم ذهبت.

تحركت البطانية كأنها شبح فوق سريره، شدَّها، طارت الحمامة إلى كومة الكتب الهزلية وهى تناغى بصوت مثل صوت الديك الرومى.. ومثلما حدث بالأمس فقد سقطت أيضًا من أعلى كومة الكتب الهزلية على الأرض.

اعتقد بالمر أن هذا الطائر إما أن يكون أصم، أحمق أو ممثلا هزليًّا، ارتدى بالمر ثيابه ونزل لتناول الإفطار، لم يعد إلى غرفته هذه المرة بالفطائر فقط، بل عاد ومعه بعض الحبوب أيضًا، نثر الحبوب على الثلج خارج النافذة، لم تكن الحمامة بحاجة إلى الملاطفة، طارت خارج النافذة والتهمت الطعام.

على مدار الأسبوع التالى تعرّف بالمر على الحمامة أكثر، وكيّف حياته الخاصة على أن يضع صديقته الجديدة فى الاعتبار، استعار من مكتبة المدرسة كتابًا عن الحمام، أو بالأحرى اختلسه من المكتبة، وعندما يتعلق الموضوع بالحمام فإنه لا يثق بأحد فى المدينة سوى دوروثى جروزيك. خطر له أنه إذا سار إلى المكتب الأمامى وبيده كتاب عن الحمام، فقد يراه أحد (رغم أنه من المؤكد لن يكون بينز الذى يتجنب المكتبة مثل تجنبه استعمال معجون الأسنان). أو أن أمينة المكتبة قد تنظر إليه بمرح، أو قد تكون لطيفة، ثم تخبر الإدارة بعد مغادرته

المكتبة. لذا فقد دسَّ الكتاب فى حقيبته وخرج وعليه علامات البراءة، وبعد يومين أعاد الكتاب.

تعلّم من الكتاب أن الحمام ينام بمجرد أن تغيب الشمس، كان هذا يسمى المبيت، تعلم أنه من الصواب إطعام الحمام الحبوب، لكنه قد يأكل بعض الحصى، يذهب الحصى إلى القانصة ويطحن الطعام أثناء مروره؛ لأن الحمام ليس له أسنان فى فمه ليمضغه. وعلم أيضا أن الحمام لا يهتم بما يأكل؛ لأن لسانه به سبع وثلاثون زائدة تذوُّق.

كما علِم أن قلب الحمامة فى مثل حجم جوزة البلّوط، وأن قلب الحمامة بالقياس لحجم جسمها يعد من أكبر القلوب بين الكائنات.

كما تعلّم أن الحمام البرى يعيش فى الطبيعة فى أركان وشقوق الجروف الصخرية، وأنه عندما يجىء إلى هذا البلد فإنه يتوجه إلى الأشياء التى تشبه الجروف الصخرية وهى المبانى العالية وناطحات السحاب، ولهذا السبب يعيش الحمام غالبًا فى المدن الكبيرة.

قرأ عن الحمام المهاجر حيث يُقدر عدد الحمام فى السرب بالملايين، لذا فعندما تطير مجتمعةً فإنها تحجب الشمس ويضطر

الناس لإضاءة المشاعل، ثم بدأ الناس صيدها أو حتى نسفها بالديناميت.. وبحلول عام 1914 ماتت آخر حمامة مهاجرة.

أخذ بالمر يفكر فى أن بالحمام شيئًا ما يجعل الناس راغبين فى اصطياده، وأيًّا كان هذا الشىء، فلن يجده فى الكتاب.

لكنه وجد الكثير غيره، فقد كان الكتاب يضم تسعًا وثمانين صفحة مما أدهش بالمر، فلم يظن أبدًا أن ما يقال عن الحمام جدير بأن يُكتب فى تسع وثمانين صفحة.

وإذا ما تفكَّر فى ذلك الآن فسوف يكتب بنفسه صفحات كثيرة عن تلك الحمامة الخاصة به. (لا جدال الآن فى أنها خاصة به). يمكن أن يكتب عن الحمامة التى ظلت تنقر زجاج نافذة حجرته كل يوم بعد الظهر إلى أن تركها تدخل، الحمامة التى تختال عبر عتبة النافذة وتصل إلى فراشه، ثم تطير من مكان إلى مكان فى حجرته، تحط للحظة فى كل مكان تتوقف فيه، كما لو كانت تقول: «لمجرد أن أتأكد أن كل شىء كما تركته»، وطارت الحمامة وهبطت بقوة على كومة الكتب الهزلية فأوقعتها، وكان بالمر يجد حمامته تتناغى بصوت مثل صوت الديك الرومى فى الخزانة بعد العشاء كل ليلة. وكانت الأصوات كثيرة ومختلفة، كانت صغيرة، وتطلق صفيرًا خفيفًا، وتنهدات، وكركرة، وقهقهة وحتى نباحًا.

وكان رفيق حجرته الجديد سربًا ولكن من طائر واحد.

فكر بالمر فى اختيار اسم لها، فكر كيف كانت الحمامة تنقر أذنه كل صباح.. فى الواقع كانت دائما تنقر شيئًا ما: الكرة، العساكر الرمادية، أغلفة الكتب، لذا كان الاسم «نيبر»؛ لأن نيبر يبدو كاسم لصبى، وأصبح غير العاقل عاقلاً، وقبل مُضى وقت طويل بدأ النظام اليومى لحياة بالمر:

الاستيقاظ: (كان المنبّه عبارة عن عضّات فى شحمة الأذن).

الادّعاء بأنه منهك: عندما تدق أمه الباب بنداءات الإيقاظ الرسمية.

ترك نيبر بالخارج، وترك الطعام على سقف الشرفة: (اشترى صندوقًا من المقرمشات بالعسل واحتفظ به فى الخزانة. لفت نظره صناديق الحبوب ووجد أن مقرمشات العسل تحتوى على نسبة كبيرة من الدهون، والدهون تساعد الحمام على الشعور بالدفء فى الشتاء.. هكذا قال الكتاب).

تنظيف الحجرة، وعدم ترك أى دليل على وجود مُرافق.

الذهاب إلى المدرسة، أو الخروج للعب فى عطلات نهاية الأسبوع!

التصرف بطريقة طبيعية: العودة للمنزل، ترك نيبر بالداخل. يصعد نيبر على ذراع بالمر ويقف على رأسه، يخامره شعور طيب،

يتفحص نيبر الحجرة، يهبط على كومة الكتب الهزلية، فيضحك بالمر، ويلعب الكرة مع نيبر (يحط نيبر على حافة السلة، بينما بالمر يقذف الكرة وعندما تصله الكرة ينقرها، وأحيانا يمسك بها قبل أن تدخل الشبكة).

الذهاب لتناول العشاء، العودة ليجد نيبر يكركر.

أداء الواجبات المدرسية، قراءة، مشاهدة التليفزيون، الذهاب إلى الحمام؛ ليهمس بتحية المساء لنيبر.

الذهاب إلى الفراش.

كان أصعب جزء فى هذا النظام كل يوم هو مغادرة المنزل، والتصرف بطريقة طبيعية.. فكيف يتصرف بطريقة طبيعية فى مدينة تقتل الحمام؟

الفصل الثامن عشر

التصرف بطريقة طبيعية.

فى حجرته، فى الشارع، فى المدرسة، سبعة أيام فى الأسبوع يهمس لنفسه: «تصرف بطريقة طبيعية... تصرف بطريقة طبيعية...».

وكيف له أن يتصرف بطريقة طبيعية وهو يعلم أن هناك حمامة أخرى بالمنزل، حمامة ذهبية لم تتحرك أبدًا من أعلى رف المدفأة فى حجرة القراءة، كان يعلم أنه مُباح فقط للحمام الذهبى أن يكركر فى هذا المنزل، وفى هذه المدينة كان يدرك أنه يحمل فى نفسه هذه الأخبار العجيبة.

تصرّف بطريقة طبيعية.

حاول.. أى إنه لم ينبس ببنت شفة، لم يدق بالشوكة على مائدة العشاء ويصيح: «لدىَّ حمامة»، لم يقفز فى الفصل ويصيح: «لدىَّ حمامة»، لم يمد ذراعيه فى وسط الطريق ويصيح للعالم كله: «لدىَّ حمامة».

لم يفعل.

لكنه قال لأمه صباح أحد أيام السبت: «إننى أفكر أن أتولى تغيير ملاءات سريرى بنفسى من الآن فصاعدًا».

كانت أمه تقف على كرسى؛ لتغيير مصباح كهربائى، وبمجرد أن قال بالمر ذلك، تمايلت على الكرسى ودارت عيناها، وخَشى أن تسقط، نظرت إليه وكأنه شخص غريب: «هلاّ كررت ما قلت؟».

أعاد بالمر ما قاله.

وبعد أن انتهت من تغيير المصباح الكهربائى نزلت وجلست على الكرسى قائلة: «هل هذه علامة أخرى على نضجك؟».

أومأ بالمر برأسه: «نعم. ولن أستعمل المصباح الجانبى بعد الآن».

أطلقَت صفيرًا وقالت: «ثم ماذا بعد ذلك؟ هل ستخرج للبحث عن وظيفة؟».

رد بالمر بطريقة لطيفة: «مجرد أننى أحاول مساعدتك، هذا كل ما فى الأمر، وسوف أقوم بتفريغ سلة القمامة أيضا، وأنظف حجرتى، وربَت على رأسها وقال: لن يكون عليك ترتيبها مرة أخرى، وقبّلها على خدها وانصرف.

شعر بالصمت المذهل وراءه، سَرَت رعشة فى جسمه.. هل كان هو نفسه؟ لم يتذكر آخر مرة قبّل فيها أمه، لم يكن من النوع متطرف العواطف، كان يفعل كل شىء ولكن بطريقة طبيعية.. كان قد بدأ يتعلم كيف يحافظ على سره.

الفصل التاسع عشر

بعد أن بحث بالمر الأمر مع أمه، حوّل انتباهه نحو الأولاد.

حدثت بعض التصورات المعينة، التى سببت له أرقًا، كان الوقت بعد الظهر، والأولاد فى الملعب الخلفى... بينما كان نيبر يستعد ليهبط على سقف الشرفة، أو أن يتسلل الأولاد إلى حجرته ليلاً، كما فعلوا من قبل، ويفتح أحدهم باب الخزانة.

فكر فى أن يخبرهم بأنهم لن يتمكنوا من دخول حجرته أبدًا، مدعيًا أنها كانت تعجُّ بالقمل، ويسكنها شبح، لكنه كان يعلم أن ذلك لن يُجدى أبدًا، فإذا طلب من بينز عدم تخطى حدود الكياسة فكأنه يطلب من نيبر ألا ينقر!

أو أن يخبرهم بأن أمه لن تكون سعيدة بوجودهم فى المنزل بعد ذلك. (كذب)؛ لأنها لا تحبهم (وهذه حقيقة)، لكنه لم يقوَ على ذلك، ولهذا فقد حاول ألا يقدم تفسيرًا لعدم رغبته فى حضورهم إلى منزله.. على سبيل المثال حدث فى أحد أيام السبت أن قرر بينز أن يتناول الجميع طعام الغداء عند بالمر، وكانوا قد فعلوا ذلك بضع مرات من قبل، وكان بينز يجد دائمًا شيئًا يحبه فى الثلاجة،

فكر بالمر بسرعة، وأخبرهم أن الثلاجة مكسورة وأن الصراصير تملأ المطبخ، وليس لديهم من طعام سوى سمك التونة والماء، وصدّق بينز ذلك.

مرة أخرى، كانوا يلعبون بالثلج فى الخارج، عندما قرر بينز أنه يشعر بالبرد وقال: «دعونا نذهب إلى بيت بالمر» فقال بالمر: «ليس عندنا موضع دافِئ، المدفأة مكسورة.. فقال بينز: إنه لا يعبأ بذلك.. فللمنزل جدران وباب، أليس كذلك؟ لذا توجهوا إلى منزل بالمر.

لم يستطع بالمر التفكير فى أى شىء حتى وصلوا إلى السلم الأمامى لمنزله عندما أشار إلى الجانب الآخر من الشارع فجأة وصرخ: «لنقذف باب منزل فيش فيس» وعندما انتهوا من إلقاء كرات الثلج على منزل دوروثى جروزيك، كان قد أصبح أبيض اللون، ونسى بينز أنه كان يشعر بالبرد.

اعتاد بالمر أن يستخدم دوروثى؛ ليلهيهم عن نفسه وبيته، وبمجرد أن يهم الأولاد أن يتحولوا تجاه منزله يقترح عليهم: «دعونا نقذف باب بيت فيش فيس!».

«دعونا نقذف سيارة فيش فيس!».

«دعونا نقذف فيش فيس!» وجه السمكة.

وفى حالة عدم وجود ثلج على رصيف دوروثى جروزيك، كانوا يرسمون وجوهًا غريبة داخل مربعات لعبة الحجلة الخاصة بها، كانوا يختبئون فى كمائن ليفاجئوها فى طريق عودتها من المدرسة، كانوا يسخرون منها ويلتفون حولها وهى تمشى، وكانوا يقفون أمامها أحيانًا فى وسط الرصيف كأنهم أشجار آدمية، يجبرونها على أن تدور حولهم، ثم يجرون أمامها ويقفون؟ كأشجار آدمية جديدة ويجعلونها تلف حولهم مرة تلو الأخرى، طوال الطريق إلى البيت.

ذات يوم لم تكن دوروثى هناك، كانت مريضة بالبيت، وكان الثلج قد ذاب، ولم يكن هناك شىء ليقذفوا بيتها أو سيارتها به. وفى كل مربع فى لعبة الحجلة كان يوجد رسم لوجه غريب.

التفت بينز إلى بالمر وقال: «إننى أشعر بالبرد، لنذهب إلى بيتك».

ودون تفكير سمع بالمر نفسه يقول: «لنذهب إلى بيتك!».

الفصل العشرون

لم يذهب بالمر إلى منزل بينز أبدًا، بل ذهب إلى منزلى موتو وهنرى، لكنه لم يذهب أبدًا إلى منزل بينز.. لقد تخيل أن بينز يعيش وحيدًا، لم يتحدث بينز أبدًا عن أبوين وإخوة أو أخوات أو أى من مظاهر الحياة الأسرية، لقد تخيّل بالمر ما هو أبعد من ذلك: أن بينز يعيش وحده فى كوخ، أو ربما فى كهف أو جُحر أسفل جدول صغير.

لذا فقد دُهش عندما وافق بينز على اقتراحه، ومما زاد دهشته بعد عشر دقائق أنه اكتشف أن بينز لا يعيش فى كوخ أو جُحر، لكنه يعيش فى منزل يبدو من مظهره أنه رائع، له شرفة أمامية ومقبض الباب من النحاس الأصفر.. دق موتو جرس الباب ـ وهو ما يفعله كلما اقترب من منزل، حتى منزله ـ وكان رنين الجرس بالداخل مكونًا من نغمتين.

أخذ بينز مفتاحًا من جيبه وفتح الباب، لوح لهم«هيّا ادخلوا»، وفى الداخل تفحص بالمر المكان؛ بحثًا عن علامات الحياة البدائية: طمى ـ أكوام من القمامة، لكنه لم ير شيئًا من ذلك بل وجد أثاثًا نظيفًا، سجاجيد وصورًا على الحائط، منزلاً منظمًا.

قادهم بينز إلى المطبخ مباشرة وقال: «انتظروا حتى تشاهدوا هذا». سحب كرسياً أمام الثلاجة ووقف فوقه، فتح الفريزر وبدأ فى إخراج وجبات طعام مجمدة وأوعية من البلاستيك.. ووصل إلى الجزء الخلفى من الفريزر وأخرج وجبة مجمدة، قفز من على الكرسى ووضعها فوق مائدة المطبخ.. يشير الغطاء إلى أن بالداخل مكرونة إسباجيتى ومكعبات لحم.

قال هنرى: «شىء لذيذ».

قال موتو: «إننى أكره المكرونة الإسباجيتى».

قال بينز: «سوف تحبون هذا».

كان صندوقاً أكبر من الصناديق الأخرى، التى سبق أن فتحها. أدرك بالمر ذلك؛ لأن الغطاء كان مثبتاً بشريط لاصق، نزع بينز الشريط ببطء وحرص، رفع بصره وابتسم إلى كل منهم، رفع الغطاء لم تكن إسباجيتى وكرات لحم، وارتد الزائرون الثلاثة إلى الخلف.. قال هنرى: «أووف».

كان موتو أول من أفاق من الدهشة، استند وقال: «ما هذا؟»، ودون أى تحذير أمسك بينز فجأة بمحتويات الصندوق وضرب موتو بها على رأسه.

«فأر المسك!»

ألقاه على المنضدة، أحدث صوتا مثل قطعة خشب. كان مسطحًا وجامدًا، ويغلب عليه اللون الأسود، ولم يكن بالمر ليخمن ولو بعد مليون سنة أن ذلك كان ذات يوم «فأر مسك».. بل خمن أنه قد يكون لحاء شجر أو مخلفات بالوعة، والآن يحملق فيه مع الآخرين، لاحظ وجود قطع متجلطة ربما كانت يومًا فراء وعلى الحافة يظهر ذيل عارٍ بسبب التجمد.

قال هنرى: «من أين حصلت عليه؟»

قال بينز: «أحضره بانثر»

انتبه بالمر رعبا وقال: «هل لديك نمر أمريكى؟»

ضحك موتو وهنرى وقال موتو: «إنه قط»

دفعه بينز وقال: «إنه نمر أمريكى، ضرب موتو مرة أخرى بجثة فأر المسك، وجرى وراءه حول المنضدة وخارج المطبخ.

وبينما كان الصراخ وصوت الضربات يدوى فى المنزل، استند هنرى الطويل بالقرب من بالمر وقال بلطف: «بانثر قط. إنه أكثر القطط إزعاجًا فى المدينة ولا يستطيع أحد أن يداعبه، دائمًا يصطاد الطيور والفئران، يمزق رأسها، ويفصلها عن الجسد ويأتى بالجسم، ويتركه على درجات السلم الأمامى وكأنه هدية، ويقول بينز إن

بانثر قتل أيلاً ذات مرة».. تفحص وجه بالمر: «هل تصدق ذلك؟»، لم يكن متأكدًا.. حملق بالمر إلى الخلف ـ كان الإعصار يدور كالدوامة فى المطبخ حيث موتو يصرخ ويضحك وهو يدور حول المنضدة، وبينز يلوّح بفأر المسك كأنه صقر مخيف.

توقف بينز فجأة، ألقى بجثة الفأر على المنضدة، رفع يديه إلى جانبى وجهه مثل كف الحيوان ولوى أصابعه كالمخالب، رد شفته إلى الخلف؛ ليظهر أسنانه كثيرة الألوان، زمجر وقال: «القط يطوف الدغل؛ بحثًا عن فريسة، القط يطارد فريسته، إنه ينتظر، إنه يزحف...». زحف بينز على أطرافه عبر المطبخ. «إنه ينقض! إنه يعض الرقبة!». انقضَّ بينز على ظهر موتو وخرج موتو من باب المطبخ الخلفى يترنح ويصرخ وقد علقت بأسنان بينز الملونة بوصة من جلد رقبة موتو.

وفى الخارج رأى بالمر القط بانثر للمرة الأولى، كان القط يدخل الفناء الخلفى من حقل الأعشاب المجاور، صرخ بينز: «بانثر». زمجر القط، وقد أظهر أسنانه الحادة التى تشبه الخنجر.. كان قطًّا أصفر، شكله عادى، ليس أكبر حجمًا من القط العادى، لكن بالمر لاحظ أن أحدًا لم يحاول أن ينحنى ليداعبه وهو يمشى أمامهم، واختفى بالقرب من واجهة المنزل.

صاح بينز وهو ممسك بجثة فأر المسك عاليًا مثل الراية: «العودة إلى منزل فيش فيس!» وهو يتصدرهم إلى الرصيف، توقف بينز فجأة وهم يعبرون الشارع. «التفاصيل ـ توقفوا» دق بمفصل إصبعه على الجثة، هز رأسه بطريقة تعبر عن إصابته بخيبة الأمل، «يجب أن نعود» وعادوا إلى المنزل، وضع بينز الجثة فى الميكروويف، وضعها لمدة دقيقة، اختبرها بإصبعه، شمَّها، وضعها دقيقة أخرى، وفى الدقيقة الثالثة كان بينز الوحيد فى المطبخ، وكان الآخرون فى الخارج يستنشقون الهواء النقى محاولين أن يطردوا رائحة فأر المسك الميت من أنوفهم.

وأخيرًا خرج بينز حاملا حقيبة سوبر ماركت، وفى الطريق إلى بيت دوروثى جروزيك سبق بينز الباقين بمسافة نصف عمارة. وعندما وصل إلى بيت دوروثى انطلق فى العمل، بينما الآخرون مختبئون خلف سيارة على بعد عدة منازل، تمكن بالمر من رؤية بينز وهو يمد يده فى الحقيبة، وعندما أخرج يده كان ممسكا بفأر المسك الميت من ذيله، ووضع يده مرة أخرى فى الحقيبة وفى هذه المرة أخرجها وبها مطرقة، ثم ثبّت الذيل بمسامير على باب منزل أسرة جروزيك الأمامى، دق الجرس وانطلق.. واختبأ وراء سيارة ولما فُتح الباب ظهرت سيدة؛ إنها مسز جروزيك.

لم ير أحد منهم ما حدث بعد ذلك، لكن فى الواقع لم تكن هناك حاجة لذلك، سمعوا الصراخ وهم جاثمون على إطارات السيارة.

ظن بالمر أنه يعرف الصرخات، فقد سمعها كثيرًا فى الأفلام السينمائية وفى التليفزيون وفى الأحداث الرياضية، لكن ما سمعه الآن شىء مختلف ـ كان صراخًا حقيقيًّا ـ وسرت قشعريرة باردة فى جسده.

سمعوا الباب يُغلق، وعندما رفعوا أبصارهم كانت الجثة قد اختفت وكان بينز وموتو مستلقيين على ظهريهما، يحركان ذراعيهما ورجليهما ويصرخان مبتهجين.. وأثناء هذا الاحتفال قال موتو، وهو ينظر عاليًا إلى سماء يناير الملبّدة بالغيوم بصوت حالم وقد أرهقه الضحك: «قل لى.. أليست هذه حمامة؟».

الفصل الحادى والعشرون

هب بينز واقفًا على قدميه ونظر إلى أعلى متسائلاً وقال: «أين؟».

أشار موتو: «هناك». وقف وقال: «لقد ذهب».

تساءل بينز: «أى طريق؟».

أشار موتو ثانية قائلا: «ذلك الطريق».

انطلق بينز فى ذلك الاتجاه.

لحقوا به فى حديقة على بُعد نصف ميل، كان جالسًا القرفصاء على يديه وركبتيه، يطلق سُحبًا من البخار، قال لاهثًا: «ابتعد». وقف على قدميه لكنه ظل فى وضع القرفصاء مثل من يلتقط كرة البيسبول وعيناه تنعم النظر إلى السماء ثم التفت إلى بالمر وقال: «كانت الحمامة تطير فوق منزلك».

كان الجميع ينظرون إليه.

أطلق بالمر ضحكة خافتة وقال: «لم أر أى حمامة حول منزلنا، لا أعتقد أن موتو يدرك عمّا يتكلم.. من المحتمل ألاّ تكون حتى حمامة، من المحتمل أن يكون مجرد غراب».

ضرب موتو الأرض بقدمه وقال: «كانت حمامة!».

هز بالمر كتفه وضحك قائلاً: «حتى وإن كانت، ماذا بعد؟ ربما كانت تطير جنوبًا أو بعيدًا. أى حمامة تود أن تحط فى هذه المدينة؟».

صاح بينز: «حمامة حمقاء، تلك هى!»

ضحك الجميع.

صاح بالمر: «أنا أقيم الولائم وأنتم تطاردوننى على المدق!».

تأكد أنه يتصدرهم بعيدا عن الفناء الخلفى.

بعد ذلك أغلق بالمر باب حجرته خلفه ثم انهار وأخذ ينتحب بأنفاس سريعة، كان يومًا مرهقًا ويبعث على التوتر، جثة فأر المسك. صراخ مسز جروزيك. مشاهدة الحمامة. سمع نقرًا. فتح النافذة وقبل أن يخطو نيبر إلى الداخل أمسكه بكلتا يديه وجذبه إلى الداخل. تلوّى الطائر قليلا بين يديه، لكنه لم يكافح ليتحرر، مسح بالمر بخده المبلل بطول الريش الناعم، وأمسكه بقوة.

«أنت حمامة حمقاء. ألا تعرفين أنه لا أحد حولنا يحبك؟ لـمَ لـمْ تتخيرى مكانًا آخر لتهبطى فيه؟».

وعندما حرر بالمر الطائر، طار نحو حافة كرة السلة وحط هناك، نفش ريشه الناعم ورفع رأسه عاليًا، متأنقًا كما تحب أن تراه وكأنه يقول: «لأننى أحب هذا المكان».

منذ ذلك اليوم، ازداد ارتباط بالمر بالحمامة، كان أحيانا يتسلل بعد المدرسة وسط التلاميذ ويسلك طريقًا مختلفًا متجاوزاً الأولاد كى يصل البيت قبل وصول نيبر.

وحدث مرة أن وصل هو ونيبر فى نفس الوقت، وبينما يجتاز الفناء الخلفى بسرعة؛ شعر فجأة بأقدام مألوفة فوق رأسه.

تساءل: أين يكون نيبر قد ذهب أثناء اليوم؟ هل طار حول المدينة، غافلا عما يحدق به من أخطار؟ هل ذهب إلى الحديقة؟ هل سلك طريقه فوق ملعب كرة القدم دون عقبات؟ هل طار إلى مدن أخرى؟ من أجل خاطر نيبر أدرك بالمر ما يجب أن يتمناه. يجب أن يتمنى أن يجد نيبر ولدًا آخر فى مدينة أخرى، مدينة لا يركضون وراءه يصرخون، مدينة لا تكرهه ولا تصطاده.

لكن بالمر لم يستطع أن يقنع نفسه بهذه الأمنية.

أحيانا، عندما كان يترك نيبر بالخارج فى الصباح كان يراقبه وهو يتناول إفطاره على سقف الشرفة، وبعدها يمشى نيبر إلى حافة السطح ويخطو إلى طرف مزراب المطر الملوى إلى أعلى ثم يطلق صوتًا، ويطير لكنه لا يطير بعيدًا، على الفور يحلّق عاليًا ثم يدور حول البيت مرة وأحيانًا مرتين، جاء فى الكتاب الذى استعاره من المكتبة أن الحمام يفعل ذلك كى يحدد فى بوصلة ذاكرته المكان

الذى يجب أن يعود إليه، كان بالمر يفضل أن يكون هذا الطائر غير راغب فى الرحيل.. على أية حال فقد طار نيبر بعيدًا، وبسرعة اختفى عن الأنظار.

لم يحدث أبدًا أن تصرف بحمق وهو خارج حجرة بالمر.

ورغم أن الأولاد فى الأيام التالية تحدثوا وضحكوا على جثة فأر المسك وصراخ مسز جروزيك، إلا أنهم ظلّوا بعيدين عن بيت دوروثى لفترة، وليس عن دوروثى نفسها.

استمروا فى قذفها بكرات الثلج. يقفون فى طريقها كأشجار آَدمية، أو بطريقة أخرى يزعجونها أثناء ذهابها إلى المدرسة وعودتها منها. ظل بالمر متوقعا النتائج. ظن أن والديها قد يظهران عند الباب الأمامى. أو أن مدير المدرسة يعلن أنهم الأربعة موقوفون عن الدراسة. أو أن دوروثى نفسها تثور ثورة عارمة، وفى النهاية حدث شىء ما، لم يكن بالمر يتوقعه.

الفصل الثانى والعشرون

أصبحت لعبة الوقوف كأشجار آدمية شائعة بين باقى تلاميذ المدرسة. فقد لاحظ الأولاد الآخرون المرح الذى كان بالمر لارو وأصدقاؤه يعيشونه. رأوا أنه يمكنهم ممارسة هذه اللعبة أيضًا فبدأوا يختارون البنات أثناء عودتهن من المدرسة، ويعترضون طريقهن للعب، وكانوا يلعبونها أحيانا بقذف شنطة الكتب المدرسية للبنت، ووجدت أغلبية البنات اللعبة مسلية فلعبنها ضد الصبيان، ولكن دوروثى جروزيك كانت مستثناة من هذا اللهو.

بدأ بينز يلحظ. ظل لفترة يكتفى بمضايقتها، يكفيه أن يسمع ضحكته هو وأصدقائه. والآن يريد أكثر. إنه يريد شيئا من دوروثى. يريدها أن تصرخ أو تضحك أو تبكى أو تركل أو تقذف حقيبة كتب، أو حتى تقطّب جبينها، حسنًا كبداية، أى شىء إلا أن تتجاهلهم.

وهذا هو ما فعلته دوروثى، ماعدا أن تمشى حولهم عندما كانوا يثبتون فى مكانهم أمامها. لم تسلم بوجودهم بأية حال

بل إنها لم تنظر إليهم، وذات يوم بعد المدرسة قرر بينز أن يغير خططه.. فأصدر أوامره للأولاد أن يقابلوها عند باب المدرسة مباشرة، ويعترضوا طريقها إذا لزم الأمر فى كل خطوة حتى باب منزلهم الأمامى، ففعلوا ما أمرهم به، ولم تنظر إليهم مرة واحدة.

كما أنها لم تجعل الأمور أكثر صعوبة عليهم، فقد كان بإمكانها أن تسلك طرقًا مختصرة عبر أفنية المنازل، وكان بإمكانها الذهاب إلى متجر هنا أو منزل صديقة هناك، لكنها لم تفعل.

بدأ بينز يفعل ما هو أكثر، فبدلاً من الوقوف جامدًا أمامها بدأ يهز ذراعيه ورجليه، أدار عينيه وحرّك أذنيه وشفتيه ليظهر أسنانه المتعددة الألوان للجميع، أطلق صوتًا مثل الخُوار وصوتًا مثل الشخير، وصرخ صراخًا عاليًا فى وجهها، وملأ ملعقة بالفول المطهو من علبته وألقاها على حذائها.

ضج الأولاد والأطفال الآخرون بالضحك.. شعر بالمر بألم فى معدته، فقد ضحك كثيرًا، هذا البينز كان مثل الدمية المتحركة على خيوط تتراقص أمام دوروثى، كان رأسه يتمايل وحتى كاحله.. يا له من مهرج، لم تجفل دوروثى أبدًا ولم تنظر إليه.

وفى يوم عاصف دفع كتبها بقوة، مما جعل الأوراق تتطاير، واضطرت أن تتعقب الأوراق لجمعها. وفى يوم آخر خطف قبعتها الحمراء العريضة، ووضعها على رأسه وظل يتراقص أمامها ببلاهة.

ضجت الأرصفة بالضحك، حتى السيارات المارة أبطأت سيرها، لم تبتسم دوروثى، لم تحد عن طريقها، ولم تخط إلى الخلف، لم تفعل شيئًا، حتى أنها لم تترك قبعتها بالمنزل فى اليوم التالى.

وفى الأيام التالية، واصل بينز خطْف القبعة وألقاها فى الشارع، ألقاها فى صندوق القمامة وعلقها فى هوائى سيارة، وثبتها فى عمود تليفون ومسح نافذة بها، وكان ذلك عرضًا يوميا بعد اليوم الدراسى بالنسبة لموتو وهنرى وبالمر الذين كانوا حتى ذلك الحين مجرد مشاهدين. كان لون القبعة فى كل صباح يميل إلى اللون الرمادى قليلا، وتقل درجة احمرارها وهى مثبتة على رأس دوروثى بإحكام.

قال موتو دهشا: «أعتقد أنها تحب العذاب».

كتم بينز غيظه وغضبه.

وآخر شىء فعله بينز كان أبسط من كل ما سبق.

وكان بعد ظهر أحد أيام يوم الجمعة اعترض طريق دوروثى عند عودتها إلى البيت، لكن هذه المرة لم يخط أمامها فقط، بل اقترب منها، اقترب واقترب إلى أقصر مسافة حتى كاد أنفاهما أن يتلامسا. ليس هناك خدع خبيثة هذه المرة، ولا وجوه ضاحكة، كان فكه جامدًا، وعيناه حمراوين وحملق دون أن تطرف له عين. لم تزد المسافة بينهما على بوصة واحدة وتحداها ألا تنظر إليه وتحداها ألا تشم نفسَه ذا رائحة الفاصوليا المطهوة.

توقفت الحركة وتوقف الضحك على أرصفة الشارع، وقف الولد والبنت هكذا، فترة بدت كأنها ساعات، قريبين من بعضهما لدرجة يظن معها أنهما يقبّلان بعضهما البعض. وأصبح واضحًا أمام القريبين منهما، ولبينز نفسه فى النهاية، أنها رغم هذا القرب - كانت ومازالت - لا تنظر إليه.

وأخيرًا فعلت.

تكلمت.

ولكن الشخص الذى تحدثت إليه لم يكن بينز، كان بالمر لارو، أخذت خطوة إلى الوراء بعيدًا عن بينز ومشت مباشرة إلى بالمر ووقفت أمامه وقالت:

«لماذا تفعلون ذلك بى؟».

وهكذا لم تعد البنت ذات المعطف الرمادى والقبعة العريضة هدفًا.. وقفت دوروثى، وعيناها تدمعان، وكانت توجه كلامها له ليس لشخص آخر، لكن إليه، لبالمر: «لماذا تفعل ذلك بى؟».

وأدرك أنها خلال تلك الأسابيع الماضية كانت رغم كل شىء تتأذّى وأنه هو نفسه الذى أساء إليها أكثر وليس بينز، انصرفت ولم يضايقها أن تجفف دموعها، وسارت إلى البيت.

فشل نيبر فى العودة إلى البيت فى اليوم التالى، وكالعادة كان أول شىء فعله بالمر بعد أن أغلق نافذة الحجرة أن نظر إلى النافذة، فعادة كان يرى خيال نيبر.. شكلاً أسود واضحًا على ظل ضوء الشمس الذهبى، هذه المرة كان الظل وحده مثل شاشة سينما خالية من الصور.

حسنًا، لقد حدث ذلك من قبل، أحيانًا كان بالمر يصل المنزل قبله ويشرع فى رمى الكرة بالسلة، وينظر إلى النافذة بعد كل رمية فى انتظار نقر على زجاج النافذة، ومع كل لحظة تمر كان يقتنع بأن شيئًا ما سيئًا قد حدث. لم يكن هذا تأخيرًا عاديًّا. وبطريقة غلبت فيها المشاعر على الأفكار، شعر بأن هناك ارتباطًا بين غياب نيبر وكلمات دوروثى، التى كانت تلازمه دومًا.

رفع الستارة، فتح النافذة، وطلّ منها، لا أثر لنيبر، ليس فوق السقف، ولا فى السماء. أخذت الشمس فى المغيب ولم يحدث من قبل أن تأخر نيبر فى العودة هكذا.

ألقى بالمر الكرة فى السلة.. تفحَّص السماء.. راقب الساعة، وصلت رائحة الطهو إلى حجرته، تضاءل ضوء النهار، نادته أمه: «بالمر.. العَشاء!»، ضرب بقبضة يده على عتبة النافذة، وركل السرير ثم فاضت عيناه بالدموع.

أخبر والديه بأنه يجب أن يشاهد الأخبار من أجل مشروع مدرسى، واستأذن أن يأخذ عشاءه إلى حجرته، لكنه لم يستطع أن يأكل، ولم يستطع فعل أى شىء سوى أن ينتظر ويراقب ويتنصت ويحاول أن ينسى كيف أن الانتظار غير مُجدٍ، ولأنه كان يعرف أن الحمام لا يطير بعد غروب الشمس، فأينما كان نيبر، فسوف يمضى الليل هناك.

وأين يمكن أن يكون ذلك؟ هل ضلّ طريقه؟ هل وجد حمامة أخرى؟ هل صادق إنسانًا آخر؟ هل كان يهدل بلطف فى خزانة أخرى فى مدينة أخرى؟ أو سحقته سيارة على الطريق، ولم يبق منه شىء يتحرك سوى جناح يلوّح لكل إطار سيارة يمر به؟

هل أمسك به بانتر ذلك القط الأصفر؟

ضرب بقبضته على فخذيه، وتنهد متثاقلاً معبرًا عن إحباطه. أراد أن يفعل شيئًا، لكن ماذا؟ ماذا تفعل عندما لا يعود طائرك إلى البيت؟ ذهب إلى الفناء الخلفى، ووقف فى الليل البارد ورفع بصره إلى أعلى ونادى بصوت هادئ: «نيبر... نيبر...».

لم يتلق ردًّا فلم يكن هناك سوى النجوم والظلام.

همس إلى الحمامة الذهبية فى حجرة القراءة: «أين الحمامة؟».

كان الطائر الذهبى صامتًا.

لم يذهب لينام فى تلك الليلة، بدلا من ذلك، غلبه النُّعاس، وثانى شىء أدركه أنه كان يحلم بالنقر على النافذة. حلمٌ قاسٍ شاهد فيه حمامة تنقر على النافذة، لم يكن ذلك حلمًا فحسب؛ لأن ضوء النهار كان يغمر أسفل الستارة المرفوعة، كان نيبر هناك بالفعل ينقر زجاج النافذة. وعندما فتح بالمر النافذة، قفز نيبر كالعادة على رأسه، وانحنى وقرصه قرصة مؤلمة فى أذنه كما لو كان يقول له: «من قال إنه يمكنك الاستيقاظ بدونى؟»، لم يكن صباح أى عيد كريسماس أسعد من ذلك الصباح.

كان ذلك يوم سبت.. يوم إجازة لذا استطاع الاثنان أن يلعبا طويلا كما يرغبان، وأبقى بالمر الطائر فى حجرته حتى الظهر، لكن أثناء ذلك كان نيبر ينقر على زجاج النافذة وكأن لديه رغبة

واضحة فى الخروج. كَرِه بالمر أن يدعه يخرج، لكنه يدرك أنه يجب أن يفعل، وعندما فتح النافذة، وراقب نيبر حتى طار بعيدًا، أدرك شيئًا آخر، أنه لم يعد يحتمل ذلك وحده بعد الآن، يجب أن يشاركه أحد.

«لماذا تفعل ذلك بى؟».

اندفع بسرعة يهبط السلالم، خرج مسرعًا من الباب، وعبر الطريق بدون معطفه ولم يشعر بالبرد. دق على بابها، ضغط على الجرس.. سمع خطواتها بالداخل، وصوتها ينادى: «إننى قادمة لأفتح الباب»، وفُتح الباب، وغمره شعور بالدفء والنور، وابتسمت هى، كانت مسرورة لرؤيته، لم ينتظر لحظة أخرى وقال: «لدىَّ حمامة».

سقوط الريش

الفصل الثالث والعشرون

كانت والدة بينز ـ لأن بالمر كان يجب أن يقاوم رغبته فى أن يناديها «مسز بينز» ـ امرأة ذات مظهر عادى جدًّا، كانت أسنانها بيضاء مثل الكريمة البيضاء على كعكة عيد ميلاد ابنها. تقدمتهم وهى تلوح بذراعيها كقائد أوركسترا بأغنية: «عيد ميلاد سعيد»، بصوت أجش، ووزعت عليهم قطعًا كبيرة من الآيس كريم.

وبمجرد أن فتح بينز هداياه: كرة بيسبول من بالمر، مطواة من هنرى، وعلبة فاصوليا مطبوخة من موتو، صاح موتو «المعاملة! المعاملة!» وسحب بينز إلى الخارج، توجهت العصابة إلى منزل فاركوار.

طرق موتو على الباب الأمامى: «فاركوار! فاركوار».

- لم يرد أحد.

- التفوا حول البيت، أخذ موتو يدق على كل نافذة وباب، ثم لوح بيديه.

- لا يوجد أحد بالمنزل.

ثم حدث شىء غريب.

فبدلاً من أن يشعر بينز بالارتياح؛ لأن ذراعه أُنقذت، قال: «دعونا نبحث عنه»، وهرول فى إثر معاملته.

قال هنرى الذى يكره المعاملة مثل أى طفل عادى: «أنت مخبول!».

كان هنرى يحث دائما على مواجهة فاركوار، «لماذا تريد الذهاب للبحث عنها؟».

قال بينز: «لأننى لن أصل إلى العاشرة حتى أتلقى المعاملة».

كان هذا حقيقياً إلى حد ما، فقد ساد بين الأصدقاء الأربعة شعور بأنه ليس بالتقويم أو الكعك يكون عيد الميلاد، ليس بصفة رسمية. ولكى يكون رسمياً يجب أن يمس ذراعك بمفاصل إصبع فاركوار. وهنا المعضلة؛ فأنت تتمنى أن تكون أكبر سنة عن الآن، ولكنك لا تريد المعاملة، ولا يمكن أن تحصل على واحدة دون الأخرى، وعلى أقل تقدير ولو لمرة واحدة فى حياتك لا تكن فى عجلة من أمرك.

لكن بينز كان فى عجلة من أمره، إذ جرى فى أرجاء المدينة باحثًا عن فاركوار فى الأماكن التى يعتاد التردد عليها، يطرق أبواب أصدقائه وينادى على اسمه، بدا بينز قلقًا فى بادئ الأمر وكأن عدم العثور على فاركوار يحكم عليه أن يظل فى التاسعة إلى الأبد.

وجـدوا فـاركـوار أخيرًا يـركـل كـرة فـى مـلـعب كـرة الـقـدم، وحينما جرى بينز ثم موتو وهنرى تخلف بالمر عنهم، لم يكن بالمر فى أى وقت أكثر سرورًا ومرحًا منه اليوم. كانت السماء زرقاء، والهواء دافئًا، وأصوات كرات البيسبول تسمع على بُعد، كانت تجمعات الأوراق التى ظهرت حديثًا على الأشجار المحيطة بالملعب تبدو مثل حبّات الفشار ذى اللون الأخضر الشاحب، وبراعم من حشيشة البصل تفتحت عبر ملعب كرة القدم، وقد فاحت رائحتها العطرة، لكن الرائحة التى دخلت أنف بالمر كانت رائحة دخان البنادق الكريهة، شعر بالمر بوخز خفيف فى باطن قدميه وهو يمشى على الأرض التى أوقفت تساقط الآلاف.

كانت عَيْنَا بينز تلمعان، وعلامات الإثارة مرتسمة على وجهه وقد قبل المعاملة، وعندما أنهى فاركوار عمله لاحظ عدم وجود أى تعبير عن الألم على وجه بينز، تجهّم وجه فاركوار بسبب مفاصل أصابعه الشهيرة. انحنى نحو بينز ليلقى نظرة عن قرب، قال: «هل أنت بخير؟».

طوَّح بينز بذراعيه فى الهواء وكأن إحداهما لم تكن قد دمرت لتوها، رد قائلاً: «أنا فى أحسن حالاتى.. أنا فى العاشرة من عمرى!».

ابتعد بينز عن الجميع حتى أصبح يقف وحيدًا فى الملعب. لم يكن ثمة طائر يغنى على الأشجار ولا طائر يحلق فوق رأسه. ضم بينز أصابع كفيه وأحكم قبضتيه ثم مد ذراعيه إلى أقصى امتداد أمامه، فترت الابتسامة على وجه بينز، ظهرت أسنانه، حرّك قبضتى يديه المضمومتين فى اتجاهين مختلفين، وصاح: «وأنا عصّار!».

ارتعد بالمر ـ كان عيد ميلاده بعد ثلاثة أشهر فقط.

الفصل الرابع والعشرون

عاد بالمر إلى البيت ذلك اليوم ليجد دوروثى تلعب كرة السلة فى حجرته.

قالت: «لقد استأذنت والدتك فى الدخول، لذا فقد لعبت كرة السلة».

تنهد بالمر وقال: «هذه كذبة.. لقد جئتِ من أجل نيبر»، ونظر إلى النافذة فقد كانت الحمامة على وشك العودة فى أية لحظة.

ضحكت دوروثى وألقت بالكرة الخفيفة على جبين بالمر.. «أوقفنى إن استطعت».. قالت وهى ترفع الكرة إلى أعلى، وفجأة وَثَبَت ناحيته، موجهةً ركبتيها عند صدره، وكأنها تحشرها فى السلة التى يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام ونصف القدم، قائلة: «فى أنفك، بعيدًا عن أصابع قدمك!».

ضحكت وأبعدت الكرة عن أنفه، وعندما أفاق بالمر من الصدمة انضم إليها، وبدأ الاثنان يقذفان الكرة لبعضهما ويضحكان مثل دجاجتين.

لم يندهش بالمر لرؤية دوروثى فى حجرته، فقد تعودت المجىء كثيرًا منذ أخبرها عن نيبر، ولقد فرحت أمه لعودة دوروثى ثانية إلى حياته، واعتبرتها بمثابة ابنتها.

أما الأولاد الذين كان يحلو لهم أن يطلقوا على أنفسهم اسم بينز ـ كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم أحيانًا ـ فقد كلّوا من مضايقة دوروثى وكثيرًا جدًّا ما تجاهلوها، وقد دأبت هى على عدم السير فى الطرقات التى يرتادونها، وعندما ترى بالمر معهم فى المدرسة كانت تتصرف وكأنها لا تعرفه، وأدرك بالمر أنها كانت تفعل ذلك؛ لأجل خاطره.

جلست دوروثى على حافة المكتب الذى يؤدّى عليه واجباته المدرسية وقالت بلهجة ساخرة: «وهكذا، كيف كان الحفل الكبير، يا سنوتس؟».

هز بالمر كتفيه قائلا: «جيد».

«ماذا أعددتم من أطايب الطعام أنت وأصدقاؤك المقربون؟ هل أكلتم فأر مِسك ميتًا، يا سنوتس؟».

«ليس بالضبط، ولا تنادنى سنوتس».

«لِمَ لا؟ إن اسمك ــ سنوتس ــ أليس كذلك ــ سنوتس؟».

وعندما كانت دوروثى تتحدث بهذه الطريقة، لم يستطع بالمر أن يؤكد إن كانت جادة فيما تقول: «إنه مجرد اسم خاص بالشِّلة».

قالت دوروثى: «أعتذر بشدة، فلست من الشِّلة».

انظر إلى كَمٍّ الأشياء التى افتقدها؛ ليس لى اسم رائع، ليس عندى فأر مِسك ميت، ليس هناك من يعذبنى فى طريق عودتى

من المدرسة إلى البيت، لا شىء يجعل أمى تصرخ، ورفعت كُمَّ فستانها وتظاهرت بعبوس وجهها وقالت: «انظر يا سنوتس، ليس عندى أية كدمات، أريد ذراعًا سوداء وزرقاء، أريد أن أضطر لعمل كل شىء بيد واحدة، أريد أن أستشعر بعض الألم».

ارتفعت مفاصل إصبعه الوسطى من قبضة يده، وتقدم نحوها بابتسامة ماكرة: «حسنا».

صرخت دوروثى وقفزت من على المكتب، دارا أرجاء الحجرة، هى تصرخ وهو يضحك، ولم يسمعا النقر على النافذة إلا بعد أن سكنا.

«نيبر».

تركا نيبر يدخل، واتجه كالعادة إلى أعلى رأس بالمر مباشرة، وكان ذلك سبب شكوى دوروثى حيث قالت: «إنه لا يقف فوق رأسى أبدا، أريده أن يقف فوق رأسى».

قال بالمر: «لا تتحركى».

مال ناحية دوروثى حتى تلامست جبهتاهما وقال: «انطلق يا نيبر. اذهب إلى دوروثى» لم يتحرك نيبر من مكانه.

ضربت دوروثى الأرض بقدميها معبرة عن ضيقها.

قال بالمر: «انتظرى دقيقة»، نقل نيبر إلى إطار السلة، غادر الحجرة وعاد بعد دقيقة وقال: «هناك علاقة بين نيبر والأذن خاصة إذا كان

هناك شىء بأذنيك.. ذات يوم كنت أعانى من ألم فى أذنى ووضعت واحدة من هذه فى أذنى»، رفع حشوة صغيرة من القطن وقال: «لقد ظل نيبر يشدُّها من أذنى إلى الخارج».

أخذت دوروثى حشوة القطن ووضعتها فى أذنها اليسرى وضغطت عليها وصاحت: نيبر.. انظر ماذا فى أذنى، وقفت فى وسط الحجرة وأذنها اليسرى إلى إطار السلة. طار نيبر دون تأخير، وحطَّ على رأسها وانحنى ونقر الحشو من أذنها، وعاد إلى طوق السلة وترك الحشو يتساقط خلال الشبكة.

هتف بالمر ودوروثى: «اثنين!».

أمسك بالمر بالكرة المطاطة فى يده، وألقى بها بعيدًا، مد ذقنه إلى نيبر: «فى وجهك أيها الطائر».

أومأ نيبر برأسه ونقره فى أنفه، وانهارت دوروثى.

كانا يضحكان ويلعبان عندما ألقى بالمر سؤالا من وراء السرير قائلا: «هل تحبين أبى؟».

راقبت دوروثى الكرة وهى ترتد عن الباب وقالت: «أى نوع من الأسئلة هذا؟».

«هل تحبينه؟».

«مؤكد، لماذا؟».

«هل تعتقدين أنه لطيف؟».

«نعم. ألا تعتقد ذلك؟».

فكّر بالمر لحظة وقال: «بلى. هو كذلك وتلك هى المشكلة».

أدارت دوروثى عينيها. «إنك تتكلم بحماقة، أية مشكلة تقصد؟».

«الطائر الذهبى».

ألقت دوروثى الكرة إليه: «أرجوك.. قل كلامًا مفهومًا».

نظر بالمر إلى دوروثى فى الجانب الآخر من الحجرة. عادت إلى مكتبه، كان شعرها البنى مصفوفًا على شكل ذيل الحصان وملفوفًا برباط من المطاط، كانت ترتدى تى شيرت ذا لون أزرق فاتح وبنطالاً جينز، وحذاءً مطاطيًّا أبيض وأسود تتهادى به فوق الأرض. هى دوروثى التى عرفها من قبل.. دوروثى التى تسكن على الجانب الآخر من الشارع والتى عرفها طوال حياته، إلا أنها إلى حد ما تبدو مختلفة عن ذى قبل، ورغم أن هيئتها لم تتغير إلا أن بالمر بدأ يرى أشياء أخرى فيها مؤخرًا.. أيًّا كانت هذه الأشياء، فإنها لم تسكن فى عينيه فقط بل فى شعوره، وتأكد من ذلك لغياب هذا الشعور فى صحبة أى أحد غيرها فقد جعلته يهيم شاردًا بها وكأنه يطفو فوق سطح الماء.

فى الصيف الماضى أخذته أمه إلى حمام السباحة ليتلقَّى

دروسًا فى السباحة، كان الدرس الأول هو كيفية الطفو، أخبره المدرب أن يلقى رأسه إلى الخلف، يرفع قدميه، ويترك نفسه راقدًا على ظهره فوق الماء، لم يكن ذلك معقولا بالنسبة لبالمر، فقد علم من تجاربه فى الحياة أنه إذا ما ترك قدميه فإنه يسقط، أو فى حالة الماء يغرق.

ظل المدرب يقول: «استرخ، ثق فى الماء، سوف أسندك».

لكن بالمر لم يستطع أن يثق بالماء مدة طويلة، ثم حاول عندما وعده المدرب بأنه لن يدعه يغرق، وضع المدرب يده أسفل ظهره الصغير، مال إلى الخلف، إلى الخلف إلى أن شعر بالماء على رقبته وأذنيه، رفعته يد المدرب برفق إلى أعلى، بَعُدَت قدما بالمر عن أرضية حمام السباحة.

قال المدرب: «ارقد على ظهرك.. استرخ، تخيل أنه فراشك، ثق به».

رقد على ظهره، حاول أن يثق، لم يستطع أن يرى شيئا سوى وجه المدرب، ووراءه السماء الزرقاء الشاسعة، ثم اختفى وجه المدرب ويداه، وكان صوته يقول: «أنت طافٍ على سطح الماء».

أحس بالمر بنفس الشعور مع دوروثى. أدرك أن بإمكانه صرف هذا الشعور عن ذهنه، وهى سوف تساعده.

اغرورقت عيناه بالدموع، سيصرفه عن ذهنه «لا أريد أن أكون عصّارًا، لكن كل شخص لابد أن يصبح عصّارًا عندما يبلغ العاشرة، وسوف أبلغ العاشرة فى غضون واحد وسبعين يومًا، وعندها سيكون علىّ أن أكون عصّارًا أيضًا، لكننى لا أريد ذلك، فأى نوع من الأطفال أكون؟ كل الأطفال من سنى يريدون أن يقتلوا الحمام، لماذا أكون مختلفًا عنهم؟».

قال كل شىء، قال أشياء كان يفكر فيها ويشعر بها منذ سنين، وقال أشياء لم يكن يدرك أنه يفكر فيها حتى سمعها تخرج من فمه.. قال لها كيف أنه يكره الحمامة الذهبية والتذكار الذى فاز به والده فى سنة ما؛ لأنه قام بصيد أكبر عدد من الحمام، وأخبرها أن هذا يزعجه، فكيف يمكن أن يجتمع شخصان فى شخصٍ واحدٍ كونه صائد حمام، وأبًا محبًّا فى نفس الوقت؟

اعتذر لها عن انضمامه للعبة الأشجار الآدمية وللشتائم التى وجهوها إليها قائلاً: «أنت لا تشبهين السمكة أبدًا».

قالت: «شكرا».

واعتذر عن عدم دعوتها إلى حفل عيد ميلاده الأخير، واعتذر عن جثة فأر المسك.

قالت: «كانت أمى ترتعد».

أخبرها عن حفل بينز وعن الليلة التى جاءوه فيها إلى فراشه واصطحبوه إلى محطة السكك الحديدية وأقفاص الطيور. أخبرها عن المرة التى طار فيها نيبر فى السماء ورآه الأولاد، وكيف كان يخفيه، إنه الشخص الوحيد الذى يملك حمامة، وحدثها كذلك عن أحلامه بالليل، وأخبرها أنه يأمل أحيانًا لو أنه لم ينضم للأولاد رغم كل شىء، وأخبرها مرارًا وتكرارًا أنه لا يريد أن يكون عصّارًا.

وثبت دوروثى من على المكتب، وسارت عبر الحجرة ووقفت أمام بالمر وحدَّقت فى عينيه طويلا وقالت: «إذًا لا تفعل»، قالتها بطريقة لطيفة.

ضحك بالمر ضحكة نصف مكبوتة، وهبّ من السرير وركل الكرة.

«لا. لا تفعل.. من السهل عليك أن تقولى ذلك، أنت لست ولدًا، لم تكبرى وأنت خائفة طوال حياتك من أن تبلغى العاشرة».

قالت دوروثى وقد أشرق وجهها: «لدىَّ فكرة، لـمَ لا تتخطى العاشرة وتبلغ الحادية عشرة مباشرة؟ أو أن تخبر الجميع بأن شهادة ميلادك كانت خطأ وقد وجدت أنك فى الواقع فى الحادية والعشرين».

ضرب بالمر الأرض بقدمه، مما جعل نيبر يرفرف عند طوق السلة. «هذا ليس مزاحًا!».

هزت دوروثى كتفيها وقالت: حسنًا، لم ترق لك إجابتى الجادة. قالت وهى تجلس على السرير: «إذا كنت لا تريد أن تكون عصّارًا، فلا تكن عصّارًا».

صرخ بالمر: «لا أستطيع أن أكون عصّارًا!»، طار نيبر وحطّ على هيكل السرير، «كل شخص عصار، يجب عليك أن تكون عصّارا، هكذا كان الأمر دائمًا أنت لا تعرفين، أنت فتاة ولا تعرفين.. ما رأيك؟» ـ صرخ وقال: «أستطيع أن أكون الولد الوحيد فى تاريخ المدينة الذى لم يكن عصّارًا أبدًا، وماذا يجعلك تعتقدين» وأشار بإصبعه إليها، وقال: «ما الذى يجعلك تعتقدين أن بينز سوف يتركنى أفلت من هذا المصير؟ سوف يسحبوننى من هذا الفراش إلى الحديقة ويلوون رقبتى».

حملقت دوروثى وهى جالسة على السرير فى الإصبع الموجه إليها، أمسكته وجذبته ومعه بالمر الذى اقترب منها حتى أصبح وجهه على بعد عدة بوصات من وجهها، وأمسكت بشحمة أذنه عندئذ، وقربته أكثر، وابتسمت ابتسامة عريضة وقبّلت طرف أنفه وضحكت.

تجمّد بالمر لحظة، دُهش ثم انفجر ضاحكًا هو الآخر، ضحكا ولعبا مع نيبر طوال فترة بعد الظهيرة.

الفصل الخامس والعشرون

سيطر على بالمر لارو خلال معظم ما مضى من حياته شعور بأنه يقف على شفا حفرة سوداء عميقة جدًّا، وفى اليوم التاسع والخمسين قبل عيد ميلاده العاشر وقع فى تلك الحفرة.

تجمعت أزهار النرجس البرى على شكل أبواق فى الساحات الأمامية أثناء خروج عصابة بينز من المدرسة، فى يوم صحو بلا غيوم. كان كل شىء يبدو فى ذلك اليوم ممكنًا، المشكلة الوحيدة كانت الاختيار. أراد بينز أن يتوجه إلى جدول الماء؛ ليصطاد سمندل. كانت لدى موتو رغبة قوية فى الشجار بالحجارة. وكان هنرى يرغب فى أن يلعب البيسبول، أما بالمر فلم يستطع أن يقرر، أو أنه لم يُرد أن يقرر، كان يريد أن يستمتع بذلك اليوم المشرق من أيام فصل الربيع وبصحبة الأصدقاء، لم يكن هناك شىء محدد يريد أن يقوم به. كان يريد أن يكون، لكن ذلك لم يكن شيئًا يستطيع أن يفسّره لنفسه، وبالتأكيد للأولاد.

توقفوا عند زاوية «مابل وكين»، وهنا يجب أن يتخذوا قرارًا: فى أى اتجاه سيذهبون؟! كان بالمر على وشك أن يعبّر عن رأيه

فى لعب البيسبول عندما احتجب ضوء الشمس قليلاً، وكأن ورقة قد وضعت أمام مصباح كهربى، أعقب ذلك صوت رفرفة أجنحة، شعر بقدمين بكل منهما أربعة أصابع تقف على رأسه وصوت عميق مألوف لديه. تداخلت آلاف الأجوبة برأسه لتفسير ذلك، لكن واحدًا منها فقط كان ذا معنى: لقد حط نيبر لتوه فوق رأسه.

فغرت ثلاثة أفواه، ست عيون حوله مثل كواكب صغيرة تحملق فيه، فجأة أحمرَّ وجه بينز، وصرخ: «حمامة»، وصلت أيديهم إليها، رفرفت بأجنحتها ورحلت ذات الأربعة أصابع بعيدًا عن رأسه.

أدرك فى الحال كيف يجب عليه أن يتصرف، نظر عاليًا إلى الطائر الهارب وصاح وهو يحاول اللحاق به: «هاى، تعال، هاى، أيها الطائر حُطَّ هنا!».

جرى الآخرون أيضًا فى محاولة للحاق به وهم ينادونه مثل بالمر، وقد تعقبوا الحمامة بامتداد مبنى كبير ضخم حتى اختفى ذلك الطائر الرمادى فوق الأسطح العالية.

وعندما أبطأوا الجرى، بدأ بالمر يتحدث: «هل رأيت ذلك يا رجل؟ هل تصدق ذلك؟ من أين أتى ذلك الشىء؟ لقد اعتقدت أننى سوف أصاب بأزمة قلبية، هل أنت متأكد أنها

حمامة؟ ماذا عساها أن تفعل فى هذا المكان؟ ربما كانت غُرابًا، أعتقد أنها تشبه الغراب».

قال بينز بلهجة غير وديّة: «كانت حمامة».

لم ينظر بالمر ناحية بينز وتظاهر بأنه يتفحَّص السماء، وقال: «حقيقة! إذا ما اقترب هذا الشىء منى ثانية» - وقام بحركة مفاجئة، قال: «سوف أسدد لها ضربة عنيفة، انحنى وعرض رأسه على الآخرين، نكش شعره وتساءل: «هل أصابت رأسى؟»».

لم يُجب أحد، اعتدل واقفًا، لم يجرؤ أن ينظر إليهم، وساروا صامتين، أحسَّ بما يدور برءوسهم ، كان قلبه يدق بشدة.

جاءه صوت بينز من الخلف: «الطائر خاصتك».. التفت بالمر. توقفوا عشر خطوات أحسها بالمر عشرة أميال.

مد بالمر ذراعيه، انحنى كما لو كان سيقفز من مكان عال وقال: «ماذا؟».

أشار موتو: «إنه خاصتك. أليس كذلك، لذا فقد حطً فوق رأسك».

قال بينز: «وتلك الحمامة التى رأيناها تطير فوق رءوسنا فى شارعكم تلك المرة».

قال موتو بصوت أجش: «نعم».

ضحك بالمر قائلاً: «إنكم مجانين، لماذا يكون فى حوزتى حمامة؟ إننى أكره الحمام، سوف أكون عصّارًا، سوف ألوى رقابه، سوف أسحقه».. وكانت هناك علبة صودا فارغة ملقاة فى البالوعة، داس عليها بكل ما أوتى من قوة، وكرر ذلك حتى سحقها وصارت مسطحة، والتقطها وألقى بها على الرصيف وداسها بقوة مرات كثيرة: «أسحقه ! أسحقه! إننى أكره الحمام، أكرهه كله». نظر إلى العيون المحملقة المتوهجة، أطبق قبضتى يديه وصرخ: «سأكون أفضل عصّار».

الفصل السادس والعشرون

بعد مرور ساعة، كان بالمر جالسًا مع دوروثى فى حجرته ولا يزال متقلب المزاج، كان يقطع الحجرة جيئة وذهابًا، وهو يحكى لدوروثى ما حدث. وكلما ازداد قلقه أسرع فى خطاه، راقب نيبر ما يحدث وقد حطً على كتاب وأخذ يحرك رأسه، كأنما يشاهد مباراة فى تنس الطاولة. كان الطائر ينتظر عند النافذة كالعادة، عندما عاد بالمر إلى البيت.

قالت دوروثى وهى جالسة على مكتب الواجبات المدرسية: «اجلس إنك تثير أعصابى».

قال بالمر: «لا أستطيع أن أتمالك نفسى كنت سأُقتل هناك».

«بالمر، إنهم يقتلون الحمام فى المدينة وليس الناس».

«هذا ما تعتقدين، لم تشاهدى الطريقة التى كانوا ينظرون إلىّ بها ولا تقولى رأيًا». - شدد بالمر على كلمتى «يقتلون الحمام» بشفتيه - «حوله» أشار ناحية نيبر الذى وقف يهز رأسه، كما لو كان منصتًا لما يقول.

قالت دوروثى: «آسفة، ماذا أنت فاعل إذًا؟».

مد بالمر ذراعيه وقال: «لا أعرف، تحدث إلى نيبر: أنت أيها الطائر الغبى الأصم، لماذا فعلت ذلك؟ ماذا عساى أن أفعل؟».

عندما عاد بالمر إلى البيت ووجد نيبر عند النافذة كالعادة، غمره شعورٌ بالسعادة والتعاسة معًا، تمنى قليلاً لو أن نيبر لم يحضر، كان بمقدوره أن يتخلص من المشكلة كلها، فكر لحظة فى أن يسدل الستارة، وكره نفسه لمجرد التفكير بهذه الطريقة، ثم فتح النافذة.

أمسك شعره بقبضتى يديه، جلس القرفصاء فى وجه الحمامة، «ماذا أنا فاعلٌ؟».

كان رد نيبر جلبة بصوت كالغرغرة.

ضحكت دوروثى ضحكة مكبوتة عندما ألقت فكاهتها: «علّمه أن يصطاد الطيور الداجنة، هل فهمت؟ د. ا. ج. ن. ة؟ لم يُسر بالمر لذلك.

كان دوروثى تمسك بإحدى يديها قلم بالمر السحرى، وفى اليد الأخرى كرة ، ألقت إليه الكرة، وكتبت على السطح الإسفنجى حروفًا سوداء كبيرة عبارة «كرة نيبر».

قال بالمر : «هل أنت بهذا تساعديننى؟».

استمرت عصبية بالمر حتى أوى إلى فراشه فى تلك الليلة، ثم عاودته العصبية عندما أيقظه المنبه فى الصباح التالى مع العضة المألوفة فى شحمة أذنه، لم يطعم نيبر على السطح كالمعتاد، وبدلا

من ذلك فقد بسط ورق صحف على الأرض، وألقى فوقها رقائق العسل، بالإضافة إلى بعض البازلاًّء المتبقية من عشاء الليلة الماضية، كان نيبر يحب البازلاًّء، ثم فتح بالمر النافذة بسرعة وأطلق طائره فى السماء.

والآن - ماذا يجب أن يرتدى؟

كان يخشى إن ارتدى ملابسه المعتادة، فقد يتعرف نيبر عليه ويزوره زيارة غير متوقعة بعد خروجه من المدرسة، لم يكن هناك مفرٌّ من التنكُّر.

نظر حوله، فوجد القميص الأبيض ذا الأكمام الطويلة الذى ارتداه ذات يوم فى حفل زفاف العمة ليندا، والبنطال البنى الغامق الذى يناسبه.

فحص نفسه فى المرآة، مازال يشبه بالمر لارو إلى حد كبير، نزل إلى الطابق السفلى، إلى الخزانة حيث تحتفظ أمه بالملابس الشتوية، وأخرج معطفه السميك ذا البطانة الذى يصل طوله إلى الفخذ، والذى يقول والده عنه إنه يجعله يشعر بالدفء فى القطب الشمالى.

أمسك أيضًا بالقلنسوة المخروطية الشكل الخضراء المصنوعة من الصوف.. مع القبعة. ولِمَ لا؟ وكوفيّة والده ذات المربعات البيضاء

والسوداء. دس القبعة والكوفية فى جيوبه وخرج متسللاً عندما فاجأته عند الباب قائلة: «توقف».

اقتربت منه، وهى تنظر إليه شذرًا كما لو كانت لا تصدق عينيها، قالت وهى تشير إلى المعطف: «ما هذا؟».

«معطف».

«أعلم! نحن فى شهر مايو (آيار)، والطقس دافئ».

«سمعت أنه سيصير باردًا فيما بعد».

«ليس لهذه الدرجة».

«حسنًا. انظرى، لن أغلق السوستة».

«يجب أن أذهب يا أمى، سوف أتأخر»، ونزل الدرج وهرب إلى الرصيف، آملا ألا تناديه أمه ثانيةً... ولم تفعل.

ظل بالمر ينظر إلى الساعة وهو فى الفصل، تمنَّى ألا ينتهى اليوم الدراسى، لم يكن يريد أن يمشى إلى البيت، وكان يخشى جرس انتهاء اليوم الدراسى، وبعد انتهاء اليوم الدراسى ذهب إلى المُدرِّسة، وقال لها إنه اعتقد أنها سوف تبقيه بعد اليوم الدراسى، فنظرت إليه نظرة غريبة وقالت: «ولِمَ ذلك يا بالمر؟».

«لأننى كنت سيئًا».

دهشت، لم يكن بالمر سيئًا أبدًا.

«لم أدرك ذلك».

«كل ما فى الأمر أنك لم تلمحينى».

«هل الأمر كذلك؟ والآن تريد أن تعترف!».

«نعم».

«تريد أن تبرئ ضميرك؟!».

«نعم».

افهم، كانت تبتسم، اعتدلت على كرسيها وسألته: «ما الشىء السيئ الذى ارتكبته؟».

«لقد بصقت على الأرض».

ارتفع حاجباها وقالت: «فعلاً! هنا تمامًا! فى هذه الحجرة!».

«نعم».

«متى فعلت ذلك؟».

«أوه، بعد الغداء».

وقفت وقالت: «هل لديك مانع أن ترينى أين فعلت ذلك؟».

لم يتوقع بالمر ذلك، ولم يفكر فى أن الاعتراف يحتاج إلى إثبات، قال:

«لقد مسحتها».

أومأت برأسها ومازالت تبتسم وقالت: «آه.. حسنًا، هذا تصرف حسنٌ منك، أعتقد أن المسألة انتهت، وبإمكانك العودة إلى البيت الآن».

وقف بالمر هناك متباطئًا ينظر إلى عينيها، لم يستطع أن يستجمع نفسه للخروج، وأخذ خطوة إلى الخلف، والتفت إلى الجانب وبصق على الأرض، وقال: «انظرى، لقد فعلتها ثانية».

دهشت المدرسة، لم تعد تبتسم، أمرته أن يحضر منديلاً من الورق وينظفها، وجعلته يذهب إلى السبورة ويكتب مائة مرة: لن أبصق على الأرض مرة أخرى أبدًا أبدًا أبدًا أبدًا مطلقًا مرة أخرى. كانت خمس من مكررات «أبدًا» وكلمة «مطلقًا» فكرتَه هو. كتب بأقصى ما يمكن من بطء.

كانت المدرِّسة تدخل وتخرج من الحجرة وهو يكتب، وفى إحدى المرات ظهر الأولاد عند الباب،

وسأله بينز: «ماذا تفعل؟».

قال بالمر: «مُعاقب».

استند بينز ونظر إلى السبورة وقال: «هل بصقت على الأرض؟».

«نعم».

جحظت عيون الأولاد.

قال موتو: «هل كانت بصقة كبيرة؟».

قال بالمر: «من رئتى»، كاد يُغشَى على الأولاد، وقد بدا عليهم الاستغراب فعلاً، «استغرقت خمس دقائق لأنظفها».

فى هذه اللحظة كان يمكن انتخابه رئيسًا للشلة.

عادت المُدرِّسة، ورحل الأولاد، ومن تلك اللحظة عندما غادرت المدرِّسة الفصل أو لم تكن ناظرة إليه قام بالمر بمسح ما كتبه.

وعندما انتهت المدرِّسة من عملها لتعود إلى البيت، جاءت إلى السبورة وأحصت الجُمل.. «تسع!»؛ صاحت: «بالمر، إنك تكتب ببطء شديد».

قال: «سوف أسرع».

«يمكنك أن تتوقف الآن، انتهى العقاب».

قبض بالمر على الطباشير، قائلاً: «لا أعتقد أننى يجب أن أتوقف قبل أن أتمَّ المائة، أشعر أن الجُمل بدأت تعمل، أعتقد أننى أحتاج العقاب كله حتى أكفَّ عن البصق».

أخذت المدرِّسة خطوة إلى الخلف، قالت نظراتها: «هل سيطلق إحداها علىّ؟ ثم تغير تعبيرها، صار أكثر خشونة، وقالت بحزم: «بالمر، إننى واثقة أنك لن تبصق فى هذه الحجرة مرة أخرى، والآن ضع الطباشير جانبًا وعُد إلى المنزل».

وضع الطباشير، ارتدى معطفه، أقفل السوستة، فغرت المُدرِّسة فاها واتسعت عيناها وهو يجذب القلنسوة الصوفية الخضراء على

أذنيه، ويلف الكوفية حول عنقه ويرفعها إلى أسفل عينيه، كانت على وشك أن تقول شيئًا، قال دون تفكير: «إن أمى تخشى أن أُصاب بالإنفلونزا» وأسرع خارجًا من الحجرة قبل أن توقفه.

غاص قلبه عندما خرج، كان الأولاد لا يزالون هناك.

تجاهلوا معطفه الثقيل وهو فى طريقه إلى المدرسة، لكنهم الآن، لن يسكتوا عندما رأوه يضيف الكوفية والقبعة.

«هاى سنوتس، أين العاصفة الثلجية العنيفة؟».

«إنك تشبه فروستى رجل الجليد».

قال لهم وقد حاول أن يظهر امتعاضه: «لقد فعلت أمى ذلك بى، إنها تقول إننى مصاب بالإنفلونزا»، وحاول أن يغير مسار الحديث، فقال: «ماذا تفعلون هنا، على أية حال؟».

سار بينز بجانب بالمر على طول الطريق وقد وضع ذراعه حول كتفيه.

وقال له: «إننا زميلان يا سنوتس، أنت عوقبت فانتظرناك».

كانت ابتسامته فاترة.

كان هنرى الوحيد الذى كان يناديه أحيانًا باسمه الحقيقى قال: «كن أمينًا يا بالمر، هل بصقت فعلاً على الأرض؟».

نظر بالمر إلى أعينهم وقال: «نعم. لقد قلت، ألم أقل؟».

لم يكونوا متأكدين من صدقه - لكنهم كانوا راغبين فى ذلك، وبالمر يؤكد ذلك - وفجأة أدرك أنه تعثر مصادفة على الطريق ليحول الانتباه عن نيبر وسار عائدًا إلى باب المدرسة، شدّه ففتحه بطريقة مسرحية وأشار إلى الداخل.

خلع بالمر الكوفية وصاح قائلاً: «اذهبوا واسألوا «ميس» كينر».

صدّقوه.. رأى ذلك فى وجوههم، جعلوه زعيمًا للجماعة، وهتفوا باسمه.

وفى طريقهم إلى البيت ضايقوه مرارًا؛ ليحكى لهم القصة، خاصة النظرة التى ارتسمت على وجه المدرِّسة، فضحكوا وضربوه على ظهره. قالوا إنهم لم يعتقدوا أنه يمكن أن يفعل ذلك، لم يعودوا يهتمون أو حتى يلاحظوا أنه كان ملفوفًا مثل المومياء.

ولكنهم تفحصوا السماء، وفى وسط الضحك والضرب لمح بالمر أعينهم تتوجه إلى السماء، كان مع موتو ذلك اليوم شىء جديد: مقلاع. رفع بالمر الكوفية إلى أعلى ودعا أن يكون نيبر بالبيت الآن.

الفصل السابع والعشرون

كان نيبر بالمنزل فى ذلك اليوم، منتظرًا عند عتبة النافذة، لكن بالمر كان مرهقًا للغاية وبحاجة إلى الراحة، لقد أنهكه الضغط الذى تعرّض له والمواقف الغريبة التى لاقاها وجعلته محطمًا تمامًا، كل ما استطاع فعله هو أن يتحامل على نفسه وينزل لتناول العشاء.

بقى شهر على مجىء الإجازة الصيفية. لم يكن يتصور أنه سينتظر كل هذا الوقت.

لكنه فعل، بشكل أو بآخر، فكل يوم يمر يقربه من الإجازة، كان يومًا بعد يوم، ينجز شيئًا ما.

وفى كل يوم يواجه ـ عند مغادرته البيت ـ مشكلتين، لا يهم كيف نجح فى حلهما، فستكونان فى انتظاره فى الصباح التالى.

الأولى: كيف يتجنب ملاقاة نيبر فى طريق عودته من المدرسة؟

والثانية: كيف يجعل الأولاد لا يتحولون ضده؟

وكما اكتشف منذ اليوم الأول فإن مشاكسته تُبقيه بعد المدرسة وترفع شعبيته بين الأولاد، بصق على السبورة، تحدث وضحك فى الفصل، خلع حذاءه وجوربه، اختبأ فى خزانة الخرائط، كان

يشاكس التلاميذ الآخرين، كما ضايق المُدرِّسة يوم الإثنين من الأسبوع الأخير قبل الإجازة الصيفية.

صرخت: «بالمر» ماذا أصابك؟

لقد دأَبت على توجيه هذا السؤال إليه لفترة طويلة الآن.

نفدت عنده الإجابات، قال: «البلوغ» لم يفهم ما تعنيه هذه الكلمة. لكنه سمع أنه يحدث للمراهقين، وأنه يجعلهم غريبى الأطوار، على الأقل فى عيون الكبار.

قالت: «حاول مرة أخرى، أنت صغير جدًّا على البلوغ».

قال: «إننى ناضج جدًّا بالنسبة لسنى».

قالت: «حسن، إذًا أنت ناضج بالقدر الذى يسمح لك بالبقاء بعد المدرسة لمدة أسبوع».

سيكون ذلك طوال بقية السنة الدراسية. أرغم بالمر نفسه ألا يُظهر ضيقه.

زادت مضايقة المدرِّسة له من شعبية بالمر كثيرًا، ليس فقط بين جماعة بينز ولكن فى المدرسة كلها. وقد اشتهر بين أقرانه بأنه الولد الذى يفعل أشياء مجنونة. ينفجر الطلبة ضحكًا عندما يرونه فى الردهات. كانوا يحثونه على «عمل شىء غريب»، وكانوا يعطونه بعضًا من طعامهم.

ذات يوم قالت له دوروثى فى حجرته: «أنت مشهور».

قال بالمر وهو يمشى مسترضيًا: «أعرف، لكننى لا أريد أن أكون مشهورًا أريد أن أكون لا أحد، أريد أن أكون غير مرئى، وإذا كنت غير مرئى فكذلك سيكون نيبر أيضًا».

بدأت دوروثى تقهقه دون سبب واضح، ووضعت يدها بسرعة على فمها، وقالت: «آسفة، أعرف أننى يجب ألا أضحك، لكننى أحيانًا لا أستطيع أن أتمالك نفسى، إننى أفكر فى مضايقتك لمُدرِّستك»، انطلقت قهقهة أخرى: «ولست أنت فقط».

بسط بالمر يده وقال: «أعرف! أعرف! وانتظرى حتى ترى ما سيحدث بعد يومين».

اتسعت عينا دوروثى وقالت: «ماذا؟».

مشى بالمر فى الحجرة وقال: «قالت مسز كينر إنها لن تحجزنى آخر يوم فى المدرسة، وعلىّ أن أعود إلى البيت فى الموعد المعتاد، كما أن أمى لن تدعنى أرتدى معطفى الشتوى بعد ذلك فى هذا الطقس، لذا فإننى أخشى أن يرانى نيبر ثانية أثناء عودتى إلى البيت من المدرسة»، وأَضاف قائلاً: إننى أشاهد كوابيس طوال اليوم، أرى نيبر وقد حطّ على رأسى وبينز يخطفه من رجله و...»، ولم يستطع حتى أن يكمل الباقى، واتجه إلى نيبر الذى كان يختال على أسطح الكتب.

قالت دوروثى: «ماذا ستفعل؟».

ربت بالمر على رأس نيبر الناعم الجميل وقال: «سأرتدى قناعًا».

رفعت دوروثى يدها على فمها وقالت: «أوه. لا».

قال وهو يداعب ريش صدر نيبر برفق: «بل سأفعل.. نعم» لقد علم أن نيبر يحب ذلك وأنه سيظل ساكنًا مادام يداعبه.

قالت دوروثى: «هل لديك قناعٌ؟».

«قناعى الذى على شكل وجه الفيل».

صرخت دوروثى: «قناعك الذى على شكل وجه الفيل، من عيد الهالوين؟ والخرطوم؟»

«نعم».

أطبقت دوروثى بيديها على فمها كما لو كانت على وشك أن تتقيأ.

احمرت وجنتاها وبرزت عيناها، وجرت خارج الحجرة ودفعت الباب.

سمع بالمر صوتها المكظوم آتيًا من السلم. إن لم يكن يدرك جيدًا، ربما كان قد اعتقد أنها تنتحب..

عادت بعد دقائق تمسح البلل من على خديها، تقاوم لتمنع وجهها من الابتسام أو الضحك.

قالت: «آسفة»، وانضمت إلى بالمر فى مُداعبة ريش صدر نيبر.

قال بالمر: «لا أستطيع الانتظار حتى تنتهى المدرسة».

«أعرف».

«إننى لا أريدها أن تنتهى؛ ففى ذلك الوقت يكون عيد ميلادى قد اقترب كثيرًا».

«أعرف».

«الأمر كله جنون. إننى أشعر بأنى مشوّش الذهن».

«أعرف».

داعب بالمر ودوروثى ريش نيبر بخفة وبطء، واختلطت أصابعهما.

قالت دوروثى: «أتعرف؟».

«ماذا؟».

«أنت بطل».

«هه؟».

«كل ما تفعله يجعلك أكثر الطلاب شغبًا فى تاريخ مدرستنا، وأنت تفعل كل ذلك لتنقذه».

قطب بالمر جبينه: «إننى لست بطلاً، إننى فقط أعيش فى المدينة الخطأ، هذا كل ما فى الأمر».

يبدو أن الحمامة كانت تنظر إليهما منفصلين كل بإحدى عينيها البرتقالية، وأخذت الحمامة تهدل هديلاً خفيفًا من داخلها.

قالت دوروثى: «أتسمع ذلك؟ إنه يقول: «هذا إحساس جيد جدًّا».

قال بالمر: «لماذا يريد أى إنسان أن يصطاده؟».

«لن يصطاده أحد».

التفت بالمر إليها: «لكن، لماذا يريدون ذلك؟».

نظرت دوروثى إليه، فلم تكن لديها إجابة.

فى آخر يوم فى المدرسة ، كان بالمر حدثًا مثيرًا وهو يرتدى القناع الذى على شكل فيل فى طريق عودته إلى المنزل وقد تدلى الخرطوم حتى وسطه. كانت المشكلة هى الاحتفاظ بالقناع على رأسه؛ لأن بينز أولاً والآخرين جميعًا كانوا يجذبون الخرطوم. وفى كل مرة يجذبون فيها القناع كان بالمر يغطى وجهه بيديه، كان يتخيل نيبر يحوم فوق رأسه محاولاً أن يحطّ عليه.

وصل أخيرًا إلى البيت، وألقى بجسمه على فراشه، سار نيبر على إحدى رجليه ثم انتقل إلى الأخرى، داعبت قدم الطائر بالمر لكنه كان متعبًا لدرجة لم يستطع معها الضحك، واستطاع أن يبتسم رغم ذلك؛ لأن الدراسة انتهت... أخيرًا.

ـ لكن كانت هناك مدرسة جديدة على وشك البدء.

الفصل الثامن والعشرون

انتهى بالمر لتوه من تناول العشاء يوم الإثنين عندما دق جرس الباب، لقد جاءت الشلَّة.

قال بينز: «دعونا نذهب».

سأل بالمر: «أين؟».

رد بينز وقد أمسك رسغ بالمر وجذبه إلى أسفل الدرج الأمامى: «هيّا.. المدرسة ستبدأ فى غضون عشر دقائق».

«هل هذا نوع من المزاح؟».

قال بالمر: «المدرسة! لقد انتهى العام الدراسى».

«ليست هذه المدرسة».

كانوا يجرون، ومازال بينز ممسكًا برسغه.

جذب بالمر يده ليتحرر من يد بينز وقال: «أية مدرسة؟».

كانوا متجهين ناحية الحديقة: «أين نحن ذاهبون؟».

لمعت عينا بينز وقال: «مدرسة العصّار».

شعر بالمر بأنه هُزم هزيمة نكراء، واهتز نفسيًّا لدرجة أنه تلعثم، وفجأة انعقد لسانه وعجز عن الكلام.

توقف الجميع.

تساءل بينز: «ماذا دهاك؟».

قال بالمر بصوت أجش: «لا شىء».

سأل موتو وهو ينظر شذرًا: «ألن تأتى لمدرسة العصّار، يا سنوتس؟».

أردف بينز: «ألا تحب أن تتعلم كيف تلوى رقاب الحمام؟»، حرّك قبضتيه كما لو كان يلوى منشفة مبللة، «ألا تريد أن تتعلم كيف تلووووى رقابهم؟».

كان هنرى ينظر بعيدًا.

كان بينز فى مواجهة بالمر، وقال له: «أنت تكره الحمام، أليس كذلك؟».

أومأ بالمر قائلاً: «بالتأكيد».

كانت عينا موتو تتفحص السماء.

ضربه بينز على كتفه قائلاً: «إذن دعونا نذهب!».

ركضوا.

«كان الجرى أسوأ ما فى الأمر، ماذا أفعل؟»، وظل بالمر يفكر لكن قدميه تجريان.

كانت هناك زمرة من الأولاد مجتمعة حول رجل يرتدى قبعة بيسبول ذات لون قرنفلى لامع، الرجل الذى ظل فى انتظار بالمر لمدة عشر سنوات.. أستاذ تعليم لوى رقاب الحمام.

كان يصيح بصوت عال كى يسمع الجميع: «أفسحوا الطريق، لكل صياد خمس طلقات فى المرة، قوموا بالعد. وحتى الطلقة الأخيرة. لا تتحركوا. ابقوا فى أماكنكم»، أشار إلى الأرض عند قدميه: «هنا بالضبط، وأين تكون أعينكم طوال الوقت؟».

صاحت مجموعة من ستة أشخاص قائلين: «عليك!».

أومأ الرجل برأسه: «هذا صحيح، ومن السهل أن تجدونى وأن ترونى. أضمن لكم ألا يرتدى شخص آخر هذه القبعة البشعة».

ضحك الجميع.

وهكذا، تنصتون إلى الطلقات الخمس وتراقبوننى وعندما أفعل هكذا.. رفع قبعته القرنفلية ولوّح بها قائلا: «هذه إشارتكم تتحركون بسرعة، ثلاثة منكم، نتحرك فى مجموعات، كل مجموعة من ثلاثة أفراد، أول شخص يأخذ قفص الحمام الفارغ ـ أشار ـ هناك لذا يمكنكم أن تضعوا فيه خمسة طيور زيادة، والاثنان الأخران، تتحركان فى الملعب بسرعة، كل ما تفعلونه يكون بسرعة». أعاد قبعته على رأسه وتفحص المجموعة: «ما الكلمة السحرية، أيها الرجال؟».

صرخ الجميع ومعهم بالمر «بسرعة!».

توقف الرجل ثم همس: «لماذا؟».

بقى بعض الوقت فى انتظار إجابة، ثم جاء صوت معتدل غير متأكد: «يوجد حمام كثير!».

ضم الرجل أصابعه وأشار إلى هنرى قائلاً: «لعبة حظ، يوجد خمسة آلاف طائر، أيها الرجال، أمامنا يوم واحد لتحويلهم إلى سماد. كل طائر ميت يعنى خمسة دولارات لصيانة هذه الحديقة التى تقفون فيها.

مَنْ مِنَ الواقفين هنا لا يلعب فى الحديقة؟»

لم ترتفع يد واحدة.

هز كتفيه وقال: «هلمّوا.. إنها لكم.. إنكم تساعدون أنفسكم».

تفحصهم وقال: «أية أسئلة؟».

كان عند بالمر مليون سؤال، لكنه لم يطرح أى منها، وكذلك لم يفعل أى شخص آخر.

أومأ الرجل برأسه: «حسنًا، البند الأخير ــ لوى رقبة الطائر».

علت الهُتافات من الجماهير المحتشدة.

رفع الرجل يده وبها شىء ما.

هتاف آخر.

كان هذا الشىء رماديًّا، ربما كان يومًا جوربًا طويلاً، كان معظمه محشوًّا على نحوٍ جميل وله رقبة رفيعة تنتهى برأس فى حجم كرة الجولف.

صاح شخص: «حمامة متقزِّمة!».

ضحك الجميع.

نظر الرجل نظرة صارمة وقال: «انتهوا من هذه القهقهة الآن، لن تكون هناك قهقهة فى السابع من أغسطس، لن يكون هناك مزاح لأى شخص، وليس هذا كل ما فى الأمر».

«أنتم مقسمون إلى مجموعات الآن، هل تفهمون؟».

أومأت الرءوس ذات القبعات.

«حسنًا، الآن: الصيادون يقومون بعملهم، أنتم فريق من ثلاثة أفراد، يذهب أحدكم إلى القفص، الاثنان الآخران ـ اندفعا بسرعة ونشاط ـ إلى الملعب، ماذا ستجدون؟ شيئًا من ثلاثة أشياء، إما أن تجدوا خمسة طيور ميتة أو ستجدون خمسة تتخبط ـ أطلق عليها الجرحى ـ أو أنكم ستجدون ـ وهذه ستكون أغلب الحالات ـ مزيجًا من الحالتين، يوجد بالمدينة بعض الصيادين غير الماهرين، ولدينا أيضًا بعض القناصين المهرة، لكن الكثيرين منهم بين بين.

رفع إصبعًا وقال: «اجتمعوا دقيقة، إذا كانت الطيور الجريحة تترنح، ماذا تسمى الطيور الميتة؟ تفحص المجموعة فكانت عيناه تتلألآن.

قال شخص واقف فى المقدمة: «ناعقه؟».

ضحك أستاذ تعليم العصر قائلاً: «سؤال ماكر يا بنى، الإجابة ميتة فالموت ليس له إلا معنى واحد هو الموت»، عبث بشعر الولد

وقال: «حسنًا.. إنكما فى الملعب، يتوجه كل منكما للبحث عن حمامة - وليس ذات الحمامة - وليس ذات الطائر».

ولا يحدث شجار بينكم عمّن يحصل على طائر بعينه، ليست هذه عملية بحث عن بيضة عيد الفصح».

ويضحك كل الأولاد.

«حسنًا.. اذهب إلى الطائر الخاص بك، إن كان ميتًا فهذا رائع. وإن لم يكن ميتًا، فهذا أيضًا رائع، أى كان الوضع احمله واحصل على الذى يليه، من بينكما أنتما الاثنان ستعود أنت بخمسة طيور، وهنا تقومان بفحصها. قد ترون واحدًا غير ميت - «يهز رأسه ببطء، ينظر إلى كل الوجوه - ألوى رقبته».

سمع بالمر صوت صرير خافت. فيما عدا ذلك ساد الصمت، وضع الرجل ذلك الشىء الرمادى فوق رأسه، «يد هنا ويد هناك، والوى فى اتجاهين متضادين، تفعلها ببراعة، تفعلها بسرعة، لسنا هنا لنعذب هذه الطيور. نحن هنا لنجهز عليها بطريقة إنسانية، طَريقة بارعة وسريعة لا تحتاج أن توضع فى كيس، اذهب إلى نهاية الصف، ستكون فى المرة القادمة متقدمًا، يخرج شخص آخر القفص، سنظل نتبع نظام التتابع، وسينال كل شخص فرصته، ما الكلمة السحرية؟».

رد الجميع «بسرعة!».

تفحصهم قائلاً: «أية أسئلة؟».

جاء صوت من وسط الحشد المجتمعين: «كيف سنعرف إن كان ميتًا أم لا؟».

رد شخص آخر قائلاً: «نتحسس نبضه!».

قطعت كلمات الرجل الضحك.

كانت الأشجار صامتة.

قال الرجل: «سوف تعرف».

كانت السماء خالية.

صفق الرجل: «حسنًا اصطفّوا، هنا حمامة تتخبط»، رفع الجورب الرمادى المحشو وقال: «أريد كلاً منكم أن يتقدم إلى الأمام، ألووها كما أريتكم واخرجوا، وسأراكم يوم السابع من شهر أغسطس، الساعة السادسة صباحًا تمامًا، ولننصرف الآن».

شكّل الأولاد المجتمعون صفًّا، كان بالمر يفكر فى الهروب، لكن بينز وموتو كانا يسوقانه ضمن جماعتهما.

وأثناء وقوفه فى الصف، شعر بالمر أنه فى الرابعة من عمره مرة أخرى، فى أول عيد للأسرة وقد جاءت ناحيته حمامة مائلة على جنبها جريحة، ورائحة دخان البنادق الكريهة تزداد مع كل نفَس. حوّل عينيه من ملعب كرة القدم وثبتهما على المعلم ذى القبعة القرنفلية: لاحظ كيف أن الرجل يحملق فى وجه كل طفل تقدم وأخذ الجورب، يبدو أن الرجل كان يراقب المدّعين؛ من أجل معرفة الأطفال الذين لا يرغبون فعلاً فى أن يكونوا هناك. الأطفال غير الأكْفاء.

وإذا ما اكتشف الرجل، ماذا سيفعل؟ هل سيصرخ «آه .. هاه!». ويبعث الولد كى يتلقى عبارات السخرية من الجمهور؟ هل يمكن أن يظهر الولد وجهه فى هذه المدينة مرة أخرى؟

كان بينز ومن بعده موتو أمامه يلويان الجورب.

ومثل غالبية الأولاد قاموا بالعملية وقد بدا عليهما المجهود. والآن ها هو الرجل يناولها إلى بالمر الذى قبلها.

جاء صوت بينز بالقرب منه: «الويها يا سنوتس».

شعر بالمر بعين الرجل ترصده، دهش بسبب النظرات المرتسمة على وجهه، هل سيقول الرجل: «آه - هاه؟».

أخذ بالمر الجورب وهو يتوقع أن يخرج منه أقدام قرنفلية وريش زاهى الألوان، لم يحدث ذلك، كان يريد أن يصيح فى جميع العصارين الذين يتلقون التدريب: مَن تحاولون أن تقتلوا؟.

هذه ليست حمامة، إذا أردتم أن تعرفوا شعور الحمامة الحقيقية فاسألونى، هذا ليس إلا جوربًا».

قال الرجل: «هيا يا بنى ببراعة وبسرعة».

لوى بالمر رقبتها ببراعة وبسرعة، وقذفها إلى الأرض عند قدمى الرجل ومشى مبتعدًا.

لم يقل الرجل شيئًا.

الفصل التاسع والعشرون

أمسك بالمر بكرة السلة الخفيفة، أدارها فى يده؛ لينظر إلى اسم نيبر وقد كتب بخط كبير: ألقى الكرة ثانية إلى دوروثى، هدل نيبر وهو يقف على عمود الستارة.

قالت دوروثى: «إذا كانت مجرد جورب، لماذا قلقتَ بشأنها هكذا؟».

هب بالمر وأخذ يقطع الحجرة جيئة وذهابًا وقال: «إننى قلق لأننى سأبلغ العاشرة فى غضون ثلاثة عشر يومًا وبعد ذلك بثمانية وعشرين يومًا يحل عيد الأسرة، ثم لن يكون هناك جورب بعد ذلك».

ساد الصمت فترة قصيرة، طار نيبر إلى طوق السلة.

تحرك بالمر خطوة.

وأخيرًا قالت دوروثى: «أخبرهم».

نظر بالمر إليها «ماذا؟».

«أخبرهم».

«أخبرهم بماذا؟»

«إنك لا تريد أن تكون عصّارًا، إنك لن تكون عصّارًا».

حملق بالمر وسأل : «أخبر من؟».

حملقت دوروثى أيضًا وفجأة ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، مدت ذراعيها وقالت: «الجميع!».

حملق بالمر غاضبًا وهو ينظر إليها، وقال بلهجة ساخرة: «وهل تظنين ذلك ممكنًا».

قفزت دوروثى من مكانها المعتاد على مكتب بالمر، وقالت: «حسنًا، ماذا لو أخبرتهم أنا؟»، اندفعت نحو النافذة، رفعت الستارة، اتكأت على سقف الشرفة وصاحت: «أيها الناس... لدى خبر إليكم جميعًا!».

جذبها بالمر وأعادها إلى الحجرة وأسدل الستارة. ووقف وقد احمرّ وجهه، واستشاط غضبًا. ضحكت دوروثى، وفرّت من قبضته وذهبت لتلعب مع نيبر، أغلق بالمر النافذة تماما. وأسدل الستارة. لكنه لم يستطع أن يمنع الشعور الفاتر الذى رآه يغلف مستقبل أيامه.

وعندما عاد إلى دوروثى، رآها تبتسم ابتسامة شقية وسألته: «هل ستوجه لى الدعوة لحضور حفل عيد ميلادك هذا العام؟».

شعر بالمر بهبوط.. كان يخشى ذلك. حتى الآن، كانت حياته الاجتماعية مقسمة بدقة إلى علاقتين منفصلتين: واحدة مع

دوروثى والأخرى مع الأولاد. ساعدت دوروثى بنفسها فى حفظ هذه العلاقة بهذه الطريقة بأن تتجنبه عندما يكون الأولاد معه.

كان سهلاً عليه فى العام الماضى ألا يدعو دوروثى باستثناء تذمُّر أمه. لكن الأمر هذا العام مختلف بدرجة كبيرة. فدوروثى الآن أقرب أصدقائه. الإنسان الوحيد فى العالم الذى يشاركه فى نيبر.

كيف لا يوجه لها الدعوة؟

وكيف لا يوجه الدعوة للأولاد؟

قالت دوروثى: «حسنًا!!».

قال: «ربما لا أقيم حفلاً هذا العام». لكنه كان يعرف أنه سيقيم حفلاً الآن كانوا يتحدثون عنه مسبقًا. كانوا يتوقعونه، وكانت خطته فى فترة الصيف هى: الإبقاء على علاقة طيبة معهم.

صار الأمر أكثر صعوبة ومن الصعب تنفيذه؛ لأنه فى غضون الأسابيع الأخيرة أدرك بالمر أنه باستثناء هنرى، أصبح يخشى الأولاد الذين كان يتوق إلى مصاحبتهم. فإذا حدث واكتشفوا وتأكدوا من خيانته، فإن معاملة فاركوار تعد لهو أطفال إذا ما قورنت بما يستطيعون عمله. تخيلهم يعذبونه حتى يقودهم إلى طائره المدلل المحظور عنهم، وعندها سيكون نيبر فى عِداد الأموات.

لذا عندما قالت له أمه عند العشاء ذات يوم: «هل تريد حفلاً هذا العام؟» كان رد بالمر: «نعم».

فى أحد الأيام قالت أمه: «حسنًا، ولكن يجب عليك أن توجه الدعوة إلى دوروثى أيضًا».

هز بالمر كتفيه وأومأ برأسه. أحيانًا كان يشعر أنه مجهد ومثقل بالهموم، وبسبب المجهود الذى يبذله ليجتاز ما يقابله كل يوم؛ كان يتمنى لو أنه ذهب إلى فراشه وألا يستيقظ حتى شهر سبتمبر.

ثم قالت أمه مصادفة وهى تنثر بعض الملح على بطاطس مقلية: «هل تعرف أحدًا يبحث عن قط مفقود؟».

انتبه بالمر فى الحال وقال: «لا ، لماذا؟».

قالت: «أوه، لقد رأيت واحدًا فى مكان قريب الأيام القليلة الماضية».

هل سار عنكبوت لتوه على كتفه؟

«مكان قريب أين؟».

«كان ذلك بالأمس قريبًا من جانب الفناء الخلفى، واليوم وجدته بالداخل على السلم».

دق قلب بالمر فى صدره وسأل: «ما لونه؟».

قالت وهى تتناول بعض الفلفل: «أصفر» قالت أكثر من ذلك لكنه لم يكن يسمع لها. هرع بالمر إلى الطابق العلوى، واندفع إلى داخل حجرته، وجد نيبر بصحة جيدة... مكتنزًا يتهادى عبر الحجرة ليقابله. جَثَا على ركبتيه وضرب فخذيه بقبضة يده مرارًا.

الفصل الثلاثون

رغم أن دوروثى أكّدت أنها ستمكث حتى آخر دقيقة فى الحفل، فإنها لم تحضر حفل عيد ميلاد بالمر. وكذلك فعلت أمه. قالت له: «سأترك أباك يستقبل أصدقاءك الصغار هذا العام»، وذهبت تتسوق.

كان الأولاد مسرورين. فقد سمعوا بجائزة أمهر الرماة، وكان والد بالمر فى أعينهم بطلاً كبيرًا... «چنرالاً عسكريًّا» فى ميدان المعركة. لقد أسرعوا أكثر من مرة نحو غرفة القراءة؛ لينظروا إلى النُّصب ويتحسسوه.

طرحوا عليه أسئلة كثيرة:

«هل هى ذهب حقيقى مستر لارو؟».

«ما عدد الحمام الذى قمت باصطياده؟».

«هل من الممكن أن نرى بندقيتك؟».

وعلى المائدة فى حجرة الطعام، ألقى بينز خطبة عن نفسه، عن كراهيته للحمام وعدد الرقاب التى لواها. نادى والد بالمر الذى

كان بالمطبخ يثبت الشمع فى التورتة وسأله: «أراهن أنك تكره هذه الطيور الكريهة أكثر منى، أليس كذلك يا مستر لارو؟».

جاء والد بالمر إلى المدخل. نظر إلى بينز مباشرة، ابتسم.

قال: «لا. إننى لا أكره الحمام، لم يحدث مطلقًا». وعاد إلى التورته.

أوضحت النظرة الباهتة على وجه بينز أن الإجابة وصلت إلى أذنيه ولم يتجاوزها، وصاح: «لقد كنت عصّارًا يا مستر لارو».

«صحيح؟».

«كنت».

«والآن سنوتس أيضًا؟ ما رأيك فى ذلك؟» جاءت الإجابة من المطبخ بعد فترة: «هذا القرار يخص بالمر، الأمر يرجع له».

فغر بالمر فاه عند المدخل بينما كان بينز يضرب بقبضته على المنضدة ويصيح، أين الطعام؟

مثل أى شخص آخر، أكل بالمر الآيس كريم والكعك، لكنه لم يكن يشعر بالجوع، فتح هداياه لكنه لم يستمتع بها. لم يكن له ميل لأى شىء فى ذلك اليوم الذى كان يخشاه لمدة طويلة.

وبينما الجميع يغنون «عيد ميلاد سعيد»، حملق بالمر فى والده الداخل ومعه التورتة وحاول أن يتخيله وهو يشد الزناد مرارًا بينما

ريش نيبر الرمادى يتساقط من السماء، وُضعت التورتة أمامه، ووجد بالمر أنه لا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس.

أحرقت الحرارة الناجمة عن الشمعات العشر الصغيرة وجهه.

وشاهد شبح عشر حمامات فى أشكال لهب الشمع المباشر المتوهج.

صاح أحد الأولاد بصوت عال قائلاً: «أطفئها».

أغلق بالمر عينيه وأطفأ الشمع.

وعقب الحفل ذهبوا للبحث عن فاركوار. عندما تذكّر بالمر معاملة العام الماضى، استطاع بالكاد أن يصدق ذاكرته:

الاعتزاز بالنفس، التكريم ، الأطفال الصغار يصطفون ليلمسوا ذراعه المدمرة.

حقًّا، لقد شعر فى العام الماضى بذات الرعب الذى يشعر به الآن، لكنه عرف بعد ثقوب فاركوار العشرة هذا العام أنه لا اعتزاز بالنفس، ولا تكريم ينتظره. فقط الألم وعدم النفع.

ومما سبب له ارتياحًا كبيرًا أنهم لم يجدوا فاركوار.

عندما حان وقت العشاء تفرق الأولاد وعاد بالمر إلى البيت وحده، أطعم نيبر ولعب معه، لم يتناول هو طعامه. تلقى مكالمة تليفونية من دوروثى تهنئه فيها بعيد ميلاده.

كان الظلام يسدل أستاره فى الخارج عندما دفعه الإحساس بالجوع إلى المطبخ. وجد النصف الباقى من الكعكة مغطى وموضوعًا فوق الثلاجة. أنزلها، ووضعها على المنضدة، رفع الغطاء.. وشهق بصوت عال.

وجد حروفًا مكتوبة بأصابع على قشدة الشيكولاتة، بطول جانب طبقتى التورتة، كانت كلمة واحدة:

«الليلة»

الفصل الحادى والثلاثون

تذكر بالمر عندما فكّر فيما حدث أنه بينما كان يغادر أفراد الجماعة المنزل ذلك اليوم بعد الظهر، اندفع هنرى عائدًا، زاعمًا أنه قد نسى شيئًا ما.

إنه هنرى.

الذى كان على العكس من بينز، ودودًا وليس سمجًا.

الذى كان يجرى مع بينز وموتو، والذى فعل ما فعلاه لكنه كان مختلفًا عنهما.

والذى رآه بالمر يومًا يدفع أخته الصغيرة قريبًا من المبنى فى عربة.

فعلها هنرى، كتب الكلمة على غطاء الحلوى بإصبعه:

الليلة.

كان تحذيرًا. شىء ما سيحدث الليلة، شىء غير طيب.

ولكن ما هو هذا الشىء؟

وبينما كان يمر على الكلمة بسكين العشاء، كان يفكر فيها.

المكان الوحيد الذى يوجد به الليلة هو فراشه فى حجرته، وإن كان سوف يحدث شىء سيئ له، فهذا هو المكان الذى يجب أن يتم فيه.

لابد أنه يتعلق بينز وموتو، أو القط. لقد تسلل القط إلى المنزل من قبل. ربما هذه المرة ـ الليلة ـ سوف يتسللون إلى البيت.

لقد فعلوا ذلك مرة. وأظهر بينز مؤخرًا اهتمامًا خاصًّا بحجرة بالمر.

وتظاهر بالمر بأن الأمور مع والديه ليست على ما يرام ويصر على أنه غير مسموح له باستقبال ضيوف فى حجرته بالطابق العلوى. ولكن لم يمنع ذلك بينز من صعود السلّم إلى الحمام ما لا يقل عن ثلاث مرات أثناء الحفل.

فكّر بالمر فى الاتصال بهنرى تليفونيًّا وسؤاله مباشرةً، لكن لم يفعل. هذا الإنذار يعنى أنه سوف يستقبل زوّارًا هذه الليلة. وبدراسة شكوك الأولاد الأخيرة، لم يكن الأمر بحاجة إلى عبقرية لاكتشاف أن غرض الزيارة يتعلق برفيق معين يكسوه الريش.

صعد إلى الطابق العلوى ليطعم نيبر، الذى عاد من تجولاته اليومية. وبينما الحمامة تنقر فى قطع الطعام جلس بالمر على السرير

ليتدبر الأمر كله. خَطَرَ له أن يغلق النافذة تمامًا، وهكذا يبقون بالخارج. كان حلاً سهلاً، ولكن لكل حل عيوبًا. قد يظل الأولاد ينقرون بعنف على النافذة حتى يرد بالمر عليهم. إذا لم يستطيعوا الدخول من نافذة حجرة بالمر، قد يلجئون إلى طرق أخرى، نوافذ أخرى. قد يوقظون والديه. والأكثر أهمية أن شكوكهم سوف تتفاقم عن ذى قبل؛ لوجود نافذة مغلقة فى ليلة حارة من شهر أغسطس (آب) ولا أحد يرد على نقرهم على زجاج النافذة.

لا.. النافذة يجب أن تظل مفتوحة، يجب أن يدعهم يدخلون وهذا يعنى بالطبع أن نيبر لن يستطيع البقاء بالحجرة. ولا بالمر.

فكر فى الأمر. يمكن أن يدخلوا إلى الطابق السفلى، يمكن أن يختبئوا فى الظلام، لم يعتقد أن الأولاد سوف يفتشون المنزل كله. كان الهدف حجرة نومه.

وماذا عساه يقول عندما يسأله بينز فى اليوم التالى أين كان فى الليلة الماضية؟ يمكنه أن يقول إن الجو كان حارًّا جدًّا فى غرفته، ولذا نام فى الطابق السفلى على الأريكة، أو أفضل من ذلك يظل ساهرًا طوال الليل عند بعض أقاربه.

كان القمر يرسل أشعته خارج نافذته عندما خطر له خاطر سعيد: يمكن أن يتحول الأمر كله لصالحه. لقد شاهدوا بأنفسهم

أنه لم يكن هناك حمام أو دليل على وجود حمام، فربما ينسون شكوكهم. قد يصدقونه، قد يبتعدون. قد يكون حضورهم أمرًا طيبًا ـ رغم أنه يبدو تصرفًا جنونيًّا.

لا يجد بالمر ما يضير فى البقاء مستيقظًا فى الظلام. كان عصبيًّا لدرجة يصعب معها النوم. وأخيرًا سمع وقْع أقدام والديه يصعدان السلم. وبعد عشر دقائق أظلم الشق المضىء أسفل باب غرفة نومه.

انتظر حتى تأكد أنهم استغرقوا فى النوم. أضاء الكشاف الصغير الذى أحضره خصيصًا لهذه الليلة. كان نيبر. فى مكانه المعتاد فوق رف الخزانة. وعندما نفذ شعاع الضوء؛ تحولت العين المواجهة لبالمر من شق طولى مثل العروة إلى زر برتقالى. من ناحية أخرى لم يتحرك الطائر. كان بالمر يعرف أن هذا سلوك طبيعى، ومن السهل التعامل مع نيبر وعندما استقر للمبيت أخذته نشوة لا يعكرها شىء.

وقف بالمر على كرسى وكوّر يديه، وبرفق رفع طائره المدلل ـ المحظور عليه اقتناؤه ـ من على الرف. كان الإمساك بالحمامة والبطارية أمرًا يتطلب الحذر، لكن بالمر نجح فى نزول السلم على أطراف أصابعه دون إيقاظ مَنْ بالمنزل.

جلس أول الأمر على الأريكة وقد وضع نيبر فى حجرهِ. ولأنه لا يزال يشعر بعدم الأمان، ذهب خلف الأريكة وأطفأ الكشاف.

وفى هذا الظلام الدامس شعر بأنه ليس أكثر من أذنين وأطراف أصابع، كان يشعر بضربات قلب نيبر.

كان يشعر بالنظرة الذهبية الجامدة فى عين الحمامة «النُّصب التذكارى» على بُعد حجرتين من مكمنه. لم يكن سكون المنزل بالليل سكونًا شاملاً. كانت هناك ساعة تدق فى مكان ما. كانت أصوات الصرير والتشنجات قادمة من مواضع قريبة وبعيدة وكأن المنزل يَغُطُّ فى نوم من نوع خاص به.

حاول بالمر أن يرهف سمعه ناحية الطابق الأعلى. حبس أنفاسه قدر استطاعته وجلس منصتًا. هل كانت هذه ستارة نافذة تُفتح؟ وقْعَ أقدام؟ تصورهم فى حجرته ظلالاً، ظلامًا فوق ظلام، كشاف بينز مثل نجمة رقيقة تتحرك فى الظلام، يوجهها إلى الفراش - إنه ليس هنا - يوجهها تحت السرير، يلقى ضوءها على حقيبة الكتب، طوق السلة، المكتب والخزانة.. رف الخزانة... رف الخزانة الخالى... الخزانة.. أوه لا ... أرضية الخزانة.

لقد نسى أن يأخذهم معه إلى الطابق السفلى. هل سيرونها؟ هل يعتبرون الحبوب خاصة ببالمر للوجبات الخفيفة؟ أو هل سيستنتجون السبب الحقيقى؟

فكر أن يصعد إلى الطابق العلوى - لأنهم ربما لا يكونون هناك - يُسرع على السلم، يمسك بصندوق الحبوب ويُسرع به

إلى الطابق السفلى، الأمر لا يحتاج سوى عشر ثوان، يستطيع أن يقوم بها، لكن ماذا لو أنهم كانوا هناك؟ ماذا لو سمع أحد ذلك الصرير؟!

ظل قابعًا مكانه. قبع خلف الأريكة وكان الظلام والأثاث غير كافيين لإخفائه. بقى طوال ألف من دقات الساعة غير المرئية، وألف أخرى من ضربات قلبه. وعندما سمع صرختين حادَّتين سريعتين خلف المنزل أدرك تمامًا أنهم كانوا هناك خلف المنزل.

ثم انتظر ألف دقة أخرى قبل أن يسمح لنفسه بأن يأخذ نفَسًا عميقًا وينام .

الفصل الثانى والثلاثون

استيقظ بالمر، ونيبر ينقر فى أذنه. فى الوقت المحدد. كان والده أكثر الطيور تبكيرًا، فى المنزل يهبط السلم إلى الطابق السفلى. أمسك الطائر فى قبضة يده وقبع خلف الأريكة. وعندما دخل والده المطبخ أسرع على السلم ودخل غرفته.

نظر حوله فلم يرَ أى دليل على زوّار الليل. كان سلك النافذة مغلقًا بإحكام. كان كل شىء فى مكانه ماعدا شيئًا واحدًا، سرعان ما اكتشفه.

لم يكن قد تناول إفطاره بعد عندما دق جرس الباب. بمجرد أن فتح الباب وجد أمامه كرة سلة، ملتفة حول أصابع بينز.

«من يكون نيبر؟»

لم يستطع بالمر أن يفكر بسرعة كافية.

دفع بينز الكرة إلى أنف بالمر.

«من كتب هذا؟».

لم يشأ أن تتورط دوروثى فى الموضوع فقال: «أنا فعلت».

«إذن مَن يكون نيبر؟».

قال بالمر دون تفكير أول شىء خطر بباله: «أنا.. إنها كانت

كنيتى عندما كنت صغيرًا. نظر إليهم جميعا وقال: «قبل أن أعرفكم أيها الأولاد».

تقدم موتو ووقف بجوار بينز: «نعتقد أن نيبر حمامة».

رسم بالمر على وجهه علامات كأنه صُدِم: «حمامة؟! ماذا أفعل بحمامة؟».

قال بينز: «وماذا تفعل بتلك الحبوب الموجودة بحجرتك؟».

ضحك بالمر، مُظهرًا لهم كيف كانوا مخطئين. «وجبات خفيفة. إننى أحتفظ بطعام فى حجرتى حتى لا يكون لزامًا علىّ أن أنزل إلى المطبخ».

أراد أن يركل نفسه؛ لأنه نسى أمر طعام نيبر.

سأله بينز: «أين كنت الليلة الماضية؟».

خطر لبالمر أن له الحق فى أن يوجه أسئلة خاصة به: «أين كنت أنا؟ أين كنت أنت؟» نظر إلى هنرى. لم يظهر أى شىء على وجه هنرى.

«من أين جئتم بالكرة الخاصة بى؟».

ابتسم بينز: «جئنا لرؤيتك الليلة الماضية».

قال موتو: «لم تكن فى غرفتك».

أومأ بالمر وقال: «أعرف ذلك. فقد كنت نائمًا طوال الليل فى بيت شخص ما. بيت ابن عمى. لم أكن بالمنزل».

كان هنرى يحملق فى السماء. رأى بالمر هنرى على حقيقته: أسير يتمتع بقوة كافية لتحذيره بشأن ليلة الأمس، لكنه ضعيف جدًّا لا يستطيع عمل أى شىء سوى طاعة بينز. رأى فى هنرى شيئًا من نفسه، وأسوأ، مما سوف يصير إليه.

عبس بينز وهو ينظر إلى الكرة وإلى بالمر وقال: «أنت لست نيبر. أنت سنوتس». أسقط الكرة على الأرض وداس عليها. وعندما رفع قدمه عنها، استعادت الكرة المطاطية استدارتها. وجّه بينز سيلاً من الشتائم وداس بقوة بقدميه على الكرة حتى سوّاها بالأرض، ثم سحبها وهى تحت قدمه وألقاها على الرصيف. وظل لمدة دقيقة كاملة يلهث بسبب المجهود الذى بذله واستعادت الكرة شكلها ثانية. ركلها بعيدًا. جذب ذراع بالمر بعنف وقال: «لنذهب. يجب أن نجد فاركوار».

وجدوا فاركوار أمام أحد المحال يأكل كعك الشيكولاتة ويشرب مشروبًا غازيًّا. تمنى لو أنه بين يديه.

أعلن بينز وهو يشير إلى بالمر قائلا: «عيد ميلاد الولد. بلغ العاشرة».

أخذ فاركوار جرعة من المشروب وهو يستند متكاسلاً على نافذة. وأدارها فى فمه كأنه يتغرغر بها. رفع شفته العليا جاعلاً

وجهه مثل القوارض، وبصق سيلا من المشروب من بين أسنانه الأمامية. رجع الأولاد إلى الخلف بسرعة.

حدّق فاركوار فى بالمر، وقال: «عصّار، أليس كذلك؟».

لم يرد بالمر.

قال بينز: «إنه بحاجة إلى المعاملة».

حملق فاركوار غاضبًا: «أنتم تهاجموننى؟».

بسط بينز ذراعيه وقال: «لا. إننى أقول فقط».

قطع فاركوار قطعة الكعك نصفين. غطت الشيكولاتة أسنانه.

«ماذا تروننى فاعلاً؟».

أجاب بينز مترددًا: «تتناول الطعام!».

قال فاركوار وهو يدير المشروب فى فمه: «أتناول إفطارى».

رجع الأولاد إلى الخلف بسرعة مرة أخرى. وأضاف فاركوار: «لا تقولوا شيئًا أثناء تناولى الإفطار. أتفهمون؟».

أومأ الأولاد الأربعة. تراجع الأولاد إلى الحاجز وجلسوا فى مواجهة الطريق دون أن يجرءوا حتى على النظر إلى فاركوار.

سمعوا صوته بعد فترة طويلة: «حسنًا». التفتوا. كان سائرًا على الرصيف. قاموا وتبعوه. انعطف عند عمود هوائى بين واجهتى

متجرين وعاد إلى الطريق الضيّق. توقف. رجع إلى الخلف مبتعدًا وترك مسافة بينهم. كانت جميع الوجوه واجمة. لم يتكلم أحد.

أشار فاركوار إلى الأرض أمامه. نظر فى عينىّ بالمر، وقال:

«تقدَّم».

تقدَّم بالمر.

«يمينًا أم يسارًا؟!».

«يسارًا».

«ارفع كُمَّ قميصك».

رفع بالمر كُمَّ قميصه الأيسر حتى كتفه. طرف بعينه عدة مرات. نظر حوله. أنزل كُمَّه. وأخذ خطوة إلى الخلف وهز رأسه.

ضيّق فاركوار ما بين حاجبيه فى دهشة: «ماذا؟».

قال بالمر: «لا». خرجت الكلمة من فمه جافة ومخنوقة.

قال فاركوار: «لا؟» كانت قطعة صغيرة من الشيكولاتة محشورة بين أسنانه الأمامية.

قال بالمر بوضوح هذه المرة: «لا». سمع جلبةً خلفه.

«لا. ماذا؟».

لا. ماذا؟

تحرك بالمر بعيدًا عنهم فى مواجهتهم جميعًا.

حدَّقوا النظر فيه وانتظروا. شاهد القدم التى سحقت الكرة والاسم على الرصيف. سمع الصراخ، سمعه قبل أن يسمعه الآخرون بقليل. الصراخ الذى أدرك أنه كان ينمو بداخله لمدة طويلة. ثبّت أقدامه وثنى ركبتيه وكوّر قبضتيه وترك ما بداخله يخرج إليهم: «لا، لا شىء، لا معاملة! لا عصّار! لا سنوتس».

وجّه صراخه إلى بينز قائلاً: «لست سنوتس! اسمى بالمر! اسمى بالمر!. وخطا إلى الخلف، وقال: «لا» ثم جرى نحو الطرق الضيقة، نحو الشوارع، جرى كما لم يجرِ من قبل أبدًا. إذا كان فاركوار معهم، كان سيُمسك به حتمًا، هو يدرك ذلك. وإذا لم يكن معهم، فلربما استطاع أن يتفوق عليهم. سمع أصوات أحذيتهم المطاطية على الرصيف خلفه، سمع صيحاتهم:

«أنت لحم ميت، يا سنوتس».

«سوف آكل هذه الحمامة!».

«سوف ألوى رقبتها وأنزع رأسها!».

«سوف أخلع رأسك!».

وأطلق بالمر ساقيه للريح.

الفصل الثالث والثلاثون

شعر بالمر أن حشرة تزحف فى منتصف ظهره، حاول أن يصل إليها، وخلع قميصه، وحرك طرف إصبعه على عموده الفقرى، فاكتشف أنها ليست حشرة بل كان عَرَقه المتصبب.

كانت الشمس تغلى فى سماء صافية تمامًا. وكان ظلُّ صندوق القمامة يتحرك ببطء على ظله الممتد، لذلك جلس بالمر وظهره مستوٍ ومسنود عليه وركبتاه مضمومتان كى يبقى فى الظل تمامًا. كان الجانب المعدنى يبعث برودة معتدلة على ظهره العارى.

احتاج تنفسه وضرباتُ قلبه وقتًا طويلاً كى يعود إلى طبيعته. مرت ساعة أو ساعتان منذ أعلن صوت أجراس الكنائس وقت الظهيرة. كان جائعًا وعطشانًا. ولكنه كان آمنًا أيضًا. وكان المكان الآخر الوحيد الآمن هو منزله، الذى كان على بُعد خمس بنايات ضخمة ونصف بناية تمامًا من عربة القمامة خلف سوبر ماركت «جريت جروسر».

فتح أحد العمال الباب الخلفى بقوة وخرج يجر كيسين من البلاستيك الأسود مملوءين لدرجة الانتفاخ. وعندما رأى بالمر قال: «هل أنت منتظر لتساعدنى؟».

هل كان الرجل يمزح؟ لم يكن مبتسمًا. أجاب بالمر: «لا».

رفع العامل كيسًا بيده ثم رفع الآخر وألقاهما فى عربة القمامة.

خفض بصره ونظر إلى بالمر. هز رأسه قائلاً: «أنت مصنوع فى الظل».

ثم عاد إلى الداخل.

خمس بنايات ضخمة ونصف بناية. رسم بالمر فى رأسه خطة لمسار عودته، بحيث يسير الطرق الضيقة ماعدا نصف البناية الأخير. حتى والأمر كذلك، فعليه أن يعبر الشوارع فى وَضَحِ النهار. وعلى أية حال فإن الأولاد يسلكون الطرق الضيقة كما يسلكون الشوارع غالبا، يمكن أن يكونوا فى أى مكان، بالقرب من أية زاوية، أو خلف أية سيارة تركها صاحبها ليقضى بعض شئونه. ويمكن أن يكونوا أمام سوبر ماركت «جريت جروسر» الآن، يسألون الناس: «هل رأيتم ولدًا...؟» ربما يكونون قد أشاعوا فى المدينة أن «بالمر لارو لديه حمامة». وأدرك أنه إذا كانت هذه الحقيقة محل شك، فقد تمت الإجابة عن السؤال بوضوح بتصرفاته فى الصباح.

وفتح الباب الخلفى بقوة مرة أخرى. خرج العامل هذه المرة وليس فى يده شىء سوى علبة مشروب بارد، ووقف أمام بالمر وناوله إياها.

لم تكن مفتوحة، وقال: «يبدو عليك أنك بحاجة لهذه، أيها الولد».

خطر لبالمر أنه قد تكون تلك حيلة ما. لكنه كان عطشانًا لدرجة لم يعبأ معها بشىء. أخذ العلبة. كانت باردة جدًّا، رفع رأسه إلى الرجل، وأحس برغبة فى البكاء، ظهرت ابتسامة على شفاه الرجل الذى قال وهو ينصرف: «على حساب المكان».

فتح بالمر العلبة وشربها حتى آخر قطرة لم يرفعها عن فمه إلا ليتنفس. أسند رأسه على عربة القمامة.

وأغمض عينيه رغمًا عنه، ورغم كل شىء فقد شعر أنه فى حالة جيدة لثوان قليلة.

كان أول ما فكر فيه هو أن ينتظر حتى يحل الظلام، ثم يجرى إلى البيت. وعندما هبطت الشمس أسفل سقف السوبر ماركت، بدأ يرى أن هذه فكرة غير صائبة، فقد يكون نيبر عائدًا إلى البيت فى ذلك الوقت، ومن يستطيع القول بأنهم ليسوا فى انتظاره؟ قد يكونون فوق سقف الشرفة ذاته، وبيدهم حجارة ومقاليع. وفجأة وضح له الأمر، يجب أن يرجع البيت قبل نيبر فألقى العلبة وجرى.

سلك أسرع الطرق الضيقة والشوارع، تطارده صورة نيبر وهو يطير وسط عاصفة من الحجارة. وعندما اقترب من المنعطف المؤدِّى لمنزله خطر له أنهم ربما كانوا ينتظرونه عند الباب الأمامى، وقد

تكون هذه آخر دقيقة له على وجه الأرض، ثم هدأ، وفكّر فى نيبر، وواصل الجرى.. لم يكونوا هناك، فاندفع داخلاً المنزل.

أراد أن ينطوى فورًا هناك ويضع وجهه فى سجادة غرفة المعيشة، لكنه لم يجرؤ على التوقف، وقطع درجات السلّم كل ثلاث درجات معًا، وفتح الباب بقوة. كان نيبر عند النافذة على العتبة بعيدًا عن سلك النافذة، وفى الداخل كان بانثر القط الأصفر جالسًا على وسادته فى مواجهة النافذة، رأسه مثل التمثال وذيله يتحرك ببطء من جانب لآخر، لم يعبأ حتى بالنظر إلى بالمر.

كان أقرب شىء إلى يده كتاب هزلى، قذف به القط الذى زمجر وقفز إلى الأرض واندفع إلى الطابق السفلى قبل أن ينهى بالمر صراخه.

وفى ذلك الوقت، عندما فتح سلك النافذة؛ ليدع نيبر يدخل أدرك أن الحمامة يجب أن ترحل.

الفصل الرابع والثلاثون

كانت دوروثى تبكى.

«لماذا غدًا؟»

قال بالمر للمرة الثالثة: «لأنهم يعرفون». ضرب السرير بيديه، وقال: «يعرفون... يعرفون... يعرفون. ولن ينتظروا. إضافة إلى أن عيد الحمام قد اقترب. ستزداد الأمور سوءًا».

«هنرى لن يؤذى نيبر».

«هنرى لا يهم. إنهم الآخرون».

توسلت إليه: «لكن لماذا؟ لِمَ لا تخبئه بالمنزل؟ أو فى منزلى» رد بصوت مجهد: سوف يجدونه، فلقد كانوا فى هذه الحجرة الليلة الماضية، وكان القط هنا اليوم، إنهم يعرفون كل شىء، ولن يكفّوا عمّا هم ماضون فيه.. إن ما يجب علينا عمله فعلاً هو أن نأخذه بعيدًا الليلة، تحت جنح الظلام.

قالت دون تفكير: «لا».

هز كتفه وقال: «إذن فليكن غدًا».

مشت مسترخية باتجاه الحائط وقد أسندت جبينها عليه.

نظرت إليه متسائلة ـ وكأن الرد عنده ليكشف عنه ـ: «ولماذا لا يتركونه وشأنه، ماذا فعل لهم؟».

رفع بصره إلى رف الخزانة، حيث كان نيبر يبيت، وقال: «لقد وُلد حمامة، هذا كل ما فى الأمر».

بكت وقالت: «لكن كيف تستطيع عمل ذلك؟».

أراحت شهور الربيع والصيف أعصابه إلى حد ما. كان يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا. رغم أنه كتم صوته خشية أن يسمعه والده، فقد كان جسمه كله يصرخ: «كيف يمكننى ذلك؟ كيف يمكننى ذلك؟هل لديك حل؟ سوف يقتلونه! هل تريدينه ميِّتًا؟».

فى وقت مبكر من النهار شاهدت دوروثى الكرة اللينة سليمة فى الشارع واستردتها. وهى الآن تلعب بها فى حجرها. قالت بصوت لا يكاد يبين: «فقط لا أريده أن يموت».

ذهب إلى النافذة، كان القمر قد بدأ يختفى، وبدأ بالمر يبكى، وقال: «هل تعتقدين أننى أفعل ذلك؟».

تقابلا فى السادسة من صباح اليوم التالى، ومعهما دراجتاهما.

كان مثبتًا فى مِقْوَدِ دراجة دوروثى سلة من السَّعف، كانت تضع فيها صندوق حذائها، أفرغ بالمر لعبة العساكر على السرير، وفتح فى غطاء صندوقها ثقوبًا للتهوية، ووضع الحمامة.

كانا قد أخبرا والديهما أنهما ذاهبان فى نزهة فى الصباح الباكر لتناول الإفطار، وكان فى السلة أيضا صندوق به فطائر ومعلبات صغيرة من الشاى المثلج.

ركبا الدراجتين إلى الحديقة، وخرجا من الحديقة، وخرجا من المدينة. تجاوزا مطعم المشويات ومبنى مخلفات الحريق وأرض الجولف، التى كان نجيلها المندى يجعلها تشبه برك المياه الفضية.

كانا يتوقفان فقط لتبديل الدراجات عندما لا تقدر دوروثى على الحركة بالسلة، وقادا دراجتيهما فى شوارع شاهداها من قبل فقط من سيارة. ثم عرجا على شوارع لم يشاهداها مطلقًا.

كانت الأصوات الوحيدة هى أزيز مكبح الدراجة وصوت الإطارات.

ركبا صعودًا ونزولاً من التلال حتى بدا لهما أنهما وصلا ولاية أخرى أو بلدًا آخر.

كان بالمر يقود المسيرة، ونجح رغم المصاعب فى تحديد حقل ترعى فيه الجياد.

قال: «لنتناول الطعام».

أخذت دوروثى الفطائر والمشروبات من سلة الدراجة، قائلةً: «هل سنتركه يطير حرًا هنا؟».

«لا. هنا ليس بعيدًا بالدرجة الكافية».

«ليس بعيدًا بالدرجة الكافية؟!».

ثقب بالمر بالماصة البلاستيكية علبة شاى مثلج وأخذ رشفة طويلة. هز رأسه قائلاً: «يجب أن نذهب بأسرع ما يمكن. فالحمام يستطيع أن يجد طريق العودة من مسافة بعيدة».

قطعت دوروثى قطعة فطيرة ولصقتها أسفل غطاء صندوق الحذاء، وفورًا التقمها بينز من بين أصابعها. «أنا نفسى لا أستطيع أن أجد طريق العودة من هنا».

قضم بالمر قطعة من الدونتس، وقال: «أنت لست حمامة. حتى كلمة بعيد لا تكفى. يجب أن يكون المكان بعيدًا وغريبًا على الحمامة أيضًا».

انزعجت قائلة: «ماذا تعنى، ألن تعصب عينيها؟».

قال بصوت أجش: «لا. لكن سأفعل شيئًا آخر. سوف ترين».

أخذ قضمة واحدة من فطيرة الدونتس، وألقى الباقى فى صندوق الأحذية، وقال: «دعينا نذهب».

أدت بهم رحلة ممتدة لا نهاية لها إلى مرج غير محاط بسور. قال بالمر: «هنا» وانحرف إلى الداخل، وناداها ثانية: «انتظرى».

توقفت دوروثى على جانب الطريق وراقبت بالمر وهو يقود دراجتها إلى داخل المرج، كانت العجلات تقفز، ووقعت السلة على الأرض المبللة، برزت النباتات الشوكية، وتمايلت الأزهار البرية، بينما كانت الدراجة تسير فى طرق غريبة الأشكال لا يعرفها إلا الذباب،

دوائر، طرق على شكل رقم ثمانية، طرق متعرجة وأخرى متشابكة. وظل الأمر هكذا فترة طويلة عندما اندفعت الدراجة فجأة إلى أقصر الطرق المؤدية إلى الغابة وراءها.

انتظرت دوروثى طويلا قبل أن ينفد صبرها، ثم انتابها القلق، فلم تستطع أن ترى بوصة واحدة خلال الأشجار الكثيفة.

كانت الشمس فوق رءوسهما مباشرة وبدا المرج كصحراء بلا ظلال. كان مِقْوَد الدراجة ساخنًا، ثم ظهر بالمر فجأة خارجًا من الغابة، يقود الدراجة بسرعة فائقة متجهًا إليها، وقد طار صندوق الدونتس فى السلة. وعندما اقترب منها رأت وجهه أحمر ومبللاً بالعرق، وفمه معوجًّا، كان صندوق الحذاء فارغًا، لم يتوقف بالمر ولم ينظر إليها لكنه كان مُثقلاً بشىء يُحدث صوت صلصلة على الطريق.

مضى وقت طويل قبل أن يبطئ السير، ليتركها تلحق به، بدلوا دراجتيهما الخاصتين، ركبا فى صمت، وسألا أى طريق يسلكان؟!، وعند محطة غاز اشتريا زجاجتى مشروبات وألقيا الفطائر بعيدًا، وعندما هبطا التل الأخير إلى المدينة، كانت الشوارع مظلمة. صعدوا السلالم بملل إلى حجرة بالمر، وكان نيبر فى انتظارهما عند عتبة النافذة!

الفصل الخامس والثلاثون

فكّر ألاّ يطعم نيبر... أو ألا يدعه يدخل. وسوف يفهم الطائر عاجلاً أو آجلاً، ويطير بعيدًا إلى الأبد.

أخبر دوروثى بفكرته، آملا أن تمنعه، وقد فعلت، حيث صرخت بصوت عالٍ لدرجة أنه ثبت يده على فمها.

قال: «حسنًا.. حسنًا»، وبدأ يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا.

وأضاف: «يجب أن نفعل شيئًا، يجب أن نتخلص منه».

لم تتكلم دوروثى.

«لن يكفوا. مُحال. لن يكفوا حتى يأخذوه».

أخذ يقطع الحجرة جيئة وذهابًا. فعل ذلك عدة مرات.

«سيظلون يسربون القط بانثر إلى هنا؛ ليكون لهم جاسوسًا بالمنزل، ليل نهار، وسوف ينتظرون وينتظرون. مقاليع. بنادق ربما حتى سُمًّا!».

يقطع الحجرة جيئة وذهابًا، ذراعاه إلى أعلى.

«سوف يضعون حبوبًا مسممة على السطح».

كانت دوروثى تضحك.

توقف بالمر، عقد ما بين حاجبيه. وقال: «ماذا؟».

استلقت دوروثى على ظهرها فوق السرير الذى تناثرت عليه قطع لعبة العساكر وجالت ببصرها فى السقف. ثم جلست مستندة على ظهر السرير، وقالت: «افعل ما كنت تفعله».

«ماذا؟»

«امشِ».

مشى بالمر خطوة.

«لا. لا أمشى، سحبت يدها جيئة وذهابًا، كما كنت».

استأنف المشى جيئة وذهابًا، وفجأة شعر بقدميه. خفض بصره، ورأى ما كانت تضحك عليه، كان نيبر يقطع الحجرة جيئة وذهابًا، يلف عندما يلف، يتتبعه جيئة وذهابًا عبر الحجرة. ترنح. ترنحت الحمامة. لم يدر إن كان يضحك أم يبكى.

فى اليوم التالى اعترفت له أمه.

جاء اعترافها بعد الإفطار. كان بالمر فى حجرته وسمع وقع خطواتها تصعد السلّم، تتحول خطواتها عادة وتتجه إلى الحمام أو حجرة نومها. لكن خطواتها اتجهت هذه المرة إلى باب حجرته مباشرةً.

دقت على الباب، وقالت: «بالمر! هل أستطيع الدخول؟».

نظر فى أرجاء الحجرة بسرعة، لاحظ وجود بقعتين من مسحوق أبيض كان قد أهمل تنظيفهما، وعلبة حبوب على الأرض. كان بالمر متهاونًا مؤخرًا، وعلى الأقل فقد غادر الطائر الحجرة لطلوع النهار. ركل بالمر علبة الحبوب تحت السرير وبدّل من ملامحه وقال لأمه:

«تفضلى».

دخلت باسمة وقالت: «هاى». لوحت له وكأنها لم تكن قد رأته فى المطبخ قبل دقيقتين.

رد بالمر التحية دون أن يلوح لها بيده، كان واقفا على إحدى بقع الذبل، وكانت الأخرى على مكتبه، الذى كان فى المكان الذى جلست أمه فيه، وكانت يدها اليسرى وكف يدها اليسرى إلى أسفل لا تبعد أكثر من بوصة واحدة عن بقعة ذبل الحمام.

توقع أن تتجول ببصرها فى أنحاء الحجرة؛ لتفتيش المكان الذى طُلب إليها أن تبتعد عنه منذ شهور. لكنها ظلت تنظر إليه وحده، مبتسمة، ورأى الآن أنها ليست ابتسامتها المعتادة، فقد كانت ابتسامة غريبة، مختلفة وتزداد خفوتا مع الوقت.

قالت: «أريد أن اعترف لك بشىء»، بدا وجهها حزينًا، مكتئبًا، لكنه لم يكن حزنًا حقيقيًّا، فقد كان تظاهرًا مفتعلاً.

لم تقل شيئا.

عادت ابتسامتها الحقيقية المألوفة، وقالت: «كنا نعرف أن لديك حمامة».

لم يستطع الحركة أو الكلام.

ضحكت وقالت: «بالمر .. استرح».

تنفس بالمر بشكل طبيعى.

مدت ذراعيها وقالت: «تعال إلى»، ذهب إليها فضمته إلى صدرها، تلاشت قوته تمامًا وأدرك فجأة كيف كان وحيدًا، وكيف أنه افتقد مساندة والديه، تنهد، وضمته إلى صدرها بشدة وراحت تتمايل به.

سمع صوتها من وراء ضربات قلبها.

«ألم تلحظ أن الأشياء لم تكن دائمًا كما تركتها؟ ألم تلحظ أن حجرتك لم تكن متربة أبدًا؟ هل كنت تعتقد فعلاً أنك يمكن أن تمنع أمك من دخول حجرة بمنزلها؟»

لقد فكّر فى هذا بالفعل.

أمسكته بطول ذراعيها. لم ير أبدًا مثل هذه الابتسامة، وكانت عيناها مضيئتين تشعان بريقًا، وقالت: «ألم تلحظ أن صندوق المقرمشات كان يظهر بطريقة سحرية فى خزانتك متى فرغ الصندوق القديم؟».

حملق بالمر فى أمه وعيناه ترتجفان. نعم. لقد لاحظ ذلك، وهذا هو ما كان يعتقد أنه سُمٌّ.

ضحكت بصوت عالٍ، ضمته إلى صدرها ثانيةً ثم تركته.

«هل تعتقد أن تكون لديك حمامة مدللة بالمنزل، منذ متى؟ - شهر يناير، وأنا وأبوك لا نعرف عنها شيئا؟»

قال: «اعتقدت أنكما ستغضبان».

حركت أصابعها عند الباب وقالت: «اذهب واحضر لى منديلا ورقيًّا». أحضر لها منديلا ورقيًّا من حجرتها، فاستخدمته لإزالة ما عَلِقَ بالمكتب، وقالت وهى تلقى المنديل الورقى فى السلة: ولا تنسَ تلك التى تقف عليها». حملقت فيه وقالت: «نغضب؟! لماذا نغضب منك؟».

صرح بالحقيقة: «إنها حمامة».

أومأت برأسها، وأصبح صوتها أكثر نعومة. «أفهم. إننا نفهم. كنا قلقين قليلاً ولكن لم نغضب، لم نغضب أبدًا».

«لكن» لم يعرف كيف يقولها. «أبى».

ابتسمت وقالت: «لا تقلق، لقد تغير أبوك حتى إنه لم يذهب لمشاهدة عيد الحمام العام الماضى. وقليلا ما يصطاد». وضعت يدها على كتفه، وقالت: «ذات ليلة - ولا تخبره أننى أخبرتك -

تسلل إلى حجرتك أثناء نومك، ووقف هناك ومعه كشاف فى خزانتك وقد شاهد الحمامة». ضحكت ضحكة مكبوتة، وقالت: «صدقنى، هذا الطائر فى أمان مع أبيك مثلما هو معك».

تكلموا كثيرًا أثناء الصباح، أخبرها بالمر بكل شىء: عن وصول نيبر بعد العاصفة الثلجية، الاستيقاظ اليومى بنقر الأذن، الأولاد وشكوكهم المتزايدة، الوقوف كأشجار آدمية فى طريق دوروثى، عندما بصق على أرضية الفصل.. (كان يتمنى أن يكون معه آلة تصوير للاحتفاظ بالنظرة المرتسمة على وجهها) رفضه المعاملة، وعندما أخبرها عن خوفه الذى لازمه طوال حياته، وأنه كان يخشى اليوم الذى سوف يبلغ فيه العاشرة ويصبح عصًّارًا، ارتعشت شفتاه وتأوهت أمه وضمته بشدة إليها وهى تربتُ على رأسه وظهره.

قال بعد برهة: «لا تدع نيبر يذهب، احتفظ به».

حاول أن يفسّر لها، حاول أن يجعلها تفهم ماذا كانت الحياة تعنى بالنسبة له، وأنه لم تعد هناك أماكن كافية بالمدينة. ليست هذه المدينة فقط ـ بالنسبة له، الأولاد والحمامة، أخبرها أن خوفه كان أكبر من أن يتحمله وأن خطته كانت جاهزة.

ولذلك عندما أخبرته دوروثى بعد يوم أن أسرتها ستتجه إلى

شاطئ البحر لقضاء الإجازة طلب منها بالمر أن تأخذ نيبر معها وتطلقه هناك، اعترضت لكنها فى النهاية تحدثت إلى والديها بشأنه، وأن والديها ـ كما كان يأمل بالمر ـ وافقا على القيام بذلك.

حضرت دوروثى لتأخذ نيبر الليلة السابقة على سفرهم، رفضت أن تستعمل صندوق الأحذية، حملت الطائر النائم عبر الشارع فى يديها. وظل بالمر راقدًا فى فراشه حتى ظهر اليوم التالى.

الفصل السادس والثلاثون

رغم حرارة الجو، فقد نام وأغلق نافذة حجرته تمامًا وأسدل الستارة. ومازال يسمع أصوات بينز وموتو يصرخان مثل قطط الطرقات على سقف الشرفة الخلفية. كان يسمعهما وهما يرفعان سلك النافذة، يدقان على النافذة يحاولان فتحها.

كانا يقفان أمامه فى الشارع كأشجار آدمية، وكانا يقفان بثبات أمامه كى يضطر أن يمشى حولهما ليجدهما وقد أعادا الوقوف فى طريقه الجديد. لقد استغرق نصف ساعة ليجتاز مبنى واحدًا. سخرا منه واستهزءا به. كانا يضربانه على أذنيه ويبصقان على حذائه. اعتاد بينز أن يكشف عن أسنانه الخضراء والصفراء وينفث رائحة الفول المطهى فى وجهه.

شعر بالمر وكأنه لم يكن أبدًا واحدًا منهم.

قال لهما: «لقد رحل».

ضحكا ولم يصدقاه.

كان لديه فكرة، يدعوهما إلى حجرته ويدعهما يرون بأعينهما. ربما يصدقانه ويتنازلان عن مطلبهما، لكنه أدرك حينئذ أن أمه لن تسمح لهما أبدًا بدخول منزلها. ثم خطر له أنه عندما فكّر فى الأولاد إنما

كان يفكر حقيقة فى اثنين منهما: بينز وموتو، ليس هنرى. صحيح أن هنرى كان واحدًا منهم، ولكنه كان مختلفًا عنهم. قد يتمكن من إقناع هنرى بالتسلل إلى حجرته، ليتأكد بنفسه.

وافق الأولاد. لم يكن بحاجة إلى إقناع بينز وموتو أن أمه تكره رؤيتهما خاصة فى منزلها، وعندما شعر بالإحباط حين علما أن هنرى هو الذى سوف يحظى بهذا الميزة، وكانا حريصين جدًّا على ألا يتحقق له ذلك.

رفع بينز بصره إلى هنرى، شد قميصه المقلم باللونين الأحمر والأبيض بشدة حتى انحنى هنرى إلى طول بينز الذى قال له: «افحصها جيدًا. لا تجعله يخدعك».

أومأ هنرى برأسه.

«أريد تقريرا عند عودتك».

«حسنًا».

اختار بالمر يومًا كانت أمه فيه خارج المنزل. وبينما كان بينز وموتو ينتظران، يجلسان بتحدٍّ على الجانب الآخر من الشارع على الدرجات الأمامية لبيت دوروثى، تقدم هنرى إلى داخل المنزل، وفى الحجرة التى بالطابق العلوى بسط بالمر يديه وقال: «الحجرة تحت أمرك. افحص كل ما تريد».

بينما كان هنرى يتفحص ما حوله، ويبحث بفضول فى الخزانة ممتثلا لأوامر بينز كان بالمر يتفحصه. كان هنرى طويلاً جدًّا لدرجة

أن رأسه تلمس شبكة كرة السلة. إلا أنه رغم ذلك لا يعطى الانطباع بضخامته. بل على العكس كان يبدو صغيرًا، أصغر حجمًا من بينز وموتو. أصغر حتى من بالمر.

قال له بالمر: «شكرًا على التحذير».

قال هنرى وهو يحدِّق فى سلة المهملات ببلاهة: «أى تحذير؟».

«على كعكة عيد ميلادى».

سكت هنرى، ثم قال: «أوه. نعم».

شاهده بالمر وهو يبحث بدقة.

سأله بالمر: «ما اسمك الحقيقى؟».

نظر هنرى وقد استبد به الرعب، ذهب ببصره نحو النافذة، كما لو كان الأولاد مختبئين هناك، ولم ينظر إلى بالمر أبدًا. «ماذا؟».

«أعرف أن آرثر هو اسم بينز الحقيقى، وبيلى اسم موتو الحقيقى. من أنت إذن؟».

هبط هنرى على ركبتيه واختبأ تحت السرير، ووقف ثانيةً ينظر إلى الحائط بعينيه الواسعتين المروعتين، وقد حرص على تفادى النظر إلى بالمر.. أجاب: «چورچ» وهو يخرج من الحجرة، ويهبط السلم بسرعة.

نادى بالمر: «چورچ! توقف. لقد رأيتك وأنت تصطحب شقيقتك الصغرى فى العربة!».

لكن هنرى، أقصد چورچ، قد خرج من الباب.

الفصل السابع والثلاثون

لابد أن يكون بينز وموتو قد صدقا ما أخبرهما به هنرى؛ لأنهما ابتعدا عن المنزل. لم يتوقفا عن مضايقته إذا حدث وقابلاه فى الشارع، وإن كانا قد توقفا عن الحضور إلى منزله، كما أنهما لم يبذلا جهدًا للبحث عنه، ويغيّرا طريقهما للبحث عنه، لم يكن هذا هو ما يشغله.

فقد بالمر حيويته خلال شهر يوليو، فقد شعر بالخواء والجفاف مثل قشور الزيز على الأشجار. كان يركب دراجته فى الطرق الضيقة الخالية.

كان نادرًا ما يرى دوروثى، وكانا يتجنبان بعضهما البعض. وإذا حدث وتقابلا مصادفة على الطريق، كانا يتبادلان التحية سريعا وينعطفان فى اتجاهين مختلفين.

ألقى صندوق الحذاء الذى استخدمه فى حفظ لعبة العساكر ومبيت نيبر، احتفظ بالمر بالجنود فى درج جواربه، وكان يخرجها أحيانًا ليلعب بها، كان يَصُفُّها على مكتبه فى مواجهة العدو، كان العدو أحيانًا كبيرًا وهائلاً مثل فردة شبشب على شكل فرس البحر، وأحيانًا ممحاة قرنفلية اللون دون خطوط دفاع.

ذات يوم شرح له والده المواقع الصحيحة للجنود، كيف يباعد بينها كى لا يقتل اللغم الأرضى أكثر من جندى واحد، كيف يوزع الجنود إلى اليمين وإلى اليسار، وأن تلتف على شكل نصف دائرة لضرب العدو من ثلاث جهات ومنعه من التسلل من الخلف، كيف يتم إبقاء إحدى الفصائل احتياطيًّا. تعلم أين يوضع الملازم ذو الوجه الأخضر والقائد، ولما كانت الأرض المرتفعة عظيمة القيمة فى المعارك فإنه تخصص للرامى بالمدفع الرشاش فوق كتاب أو قاموس أطفال.

وعادة لا يصل إلى ما هو أبعد من ذلك: نشر الجنود، سبعة وعشرين جنديًّا فى الوضع مائلاً، وسبعة وعشرين بندقية صغيرة لونها أخضر زيتونى متأهبة للمعركة، وفى ساعة الصفر يبدأ الهجوم: يتحركون إلى الأمام ثم يهجمون على الممحاة من ثلاث جهات. يوقفون أية محاولة من العدو للتقهقر، لتبادل نيران قاتلة؛ يقود الملازم الهجوم، ويصدر القائد الأوامر بضربات فى الهواء، لكن أحيانا تنجح الممحاة الشريرة فى البقاء على قيد الحياة، وتنجح أيضا فى اختراق الخطوط الأمامية، فقط لكى تستقبلها الفصيلة الاحتياطية.

ومن المثير للدهشة أن الممحاة ظلت على قيد الحياة بعد هذه المعركة أيضًا. وحينما اعتقدت أنها حررت أرضها - عندما فتح المدفع الرشاش من فوق القاموس نيرانه: طا طا طا طا طا طا. أطلق المدفع الرشاش وابلاً من الطلقات النارية بلا هوادة. أعاد الجنود تجمعهم وانضموا لإطلاق النار. ولم يتوقف هدير الحرب حتى ماتت الممحاة وقطعت إربًا.

قام بدفن الجنود فى اليوم التالى فى الفناء الخلفى. لم تقل الوجوه الخضراء الصغيرة شيئا، وحدَّقت العيون الخضراء الصغيرة فيه وهو يهيل التراب عليها.

واصل قراءة «الخنفس بيلى» وبعض المسلسلات الهزلية، لكنه لم يعد يضعها فى مجموعات، ومن تلك اللحظة توقف عن قصّها، بل وتوقف عن القراءة.

لم يلمس الكرة أبدًا. ولم تعد الشبكة المعلقة محل اهتمام.

ظل بالمر على عادته فى إغلاق باب غرفته، وإن كان يتركه أحيانًا مفتوحًا أيضا.

ذهب مع والده إلى مباراة بيسبول بين كبار اللاعبين فى الدورى المعروف باسم دورى الشفق الأحمر لأشباه المحترفين. قاد

والده السيارة إلى دينفين. كان أمرًا طيبًا أن يذهبا إلى مدينة أخرى، لكنه لم يكن جيدًا جدًّا.

أكل بالمر سندوتشات سجق ساخن بالبهارات وبسكويتًا مملحًا بالمُستردة وتناول بعض المشروبات.

كان زى كبار اللاعبين برتقاليًّا، وكانت القمصان برتقالية وكذلك الجوارب وحرف «T» على الكاب، وكان يوجد شريط أسود وبرتقالى من الحزام إلى أعلى الجورب، فبدا واقى صدر اللاعب وكأن لونه برتقالى وكذلك كانت أربطة الأحذية.

فى الجولة الرابعة من المباراة تم تسجيل هدف نتيجة تسلل، ثم هدف آخر أجمل من الأول. طارت الكرة فى السماء فوق السور الملصق عليه الإعلانات وفوق رءوس الجمهور المهلل، وحطَّت على الأرض وراء من يوقفون الكرة ويردُّونها فى وسط الملعب وتدحرجت نحو أرض الحديقة، مثل نقطة بيضاء على حصباء سوداء.

وفجأة.. بدأ الأولاد يتسابقون، جَمْعٌ من الأولاد ينحنون حول السيارات الواقعة فى ساحة الانتظار يتصادمون مع الكرة التى تتدحرج، وعندما يتفرقون ترفع يد واحدة وفيها الكرة.

وفى جولة البيسبول الأخيرة كانت هناك كرة مخالفة لقواعد اللعبة رغم أن بالمر لم يدرك ذلك فى بادئ الأمر. كان يقرأ الإعلانات عندما بدأ الجالسون حوله يقفزون من مقاعدهم فجأة وقال أحد الأشخاص: «ابحثوا!». سقط ظلٌّ عليه، وعندما التفت، سمع الصوت على بُعد بوصات من وجهه ـ شىء مثل الصفعة ـ تلاه ضحك، وجاء صوت أبيه يقول: «أخيرًا وجدتك».. كان أبوه واقفًا، متكئًا عليه، وأظلم الملعب كله والسماء، ثم عاد الضوء مرة أخرى وشخص ما يقول: «انظر إلى وجهه»، وكان أبوه يبتسم وهو ينظر إليه، وذراعاه مفتوحتان مثل الزهرة.

وأثناء العودة أمسك بالمر الكرة الطائشة فى يده، وتخيل أنه يسمع دقات قلبه.

الفصل الثامن والثلاثون

كان بالمر كمن يستقرئ المستقبل. لقد شم رائحة دخان البنادق الكئيبة الكريهة قبل أسبوع كامل من حلول عيد الأسرة، كانت هناك طلقات أيضًا، طلقات المسدسات ذات الكبسولة الورقية أو المعدنية والتى تحوى متفجرات يطلقها أطفال فى الرابعة والخامسة يتدربون كى يصيروا يوما رماة وعصارين، كانت أهدافهم وهم يطلقون مسدساتهم: الحمام، نطاط النجيل، صناديق البريد، ونبات القرع، بل ويصوبون على بعضهم.

كانت الشمس ساطعة فى السماء الصافية، فإذا ما خلعت حذاءك تجد الأرصفة محرقةً. ولهذا فإن الناس يروون الزهور بعد العشاء.

وعندما حل المساء سمع بالمر ضجيج الشاحنات.

كان الأطفال الصغار يقودون دراجاتهم بعصبية، وهم يرفون فيما بينهم، يلهثون وراء طبقات من أقفاص خشبية تفوق ناطحات السحاب علوًا، أقفاص محشوة بالحمام المذعور والمقتول، وحرّاس الأمن فى مواقعهم.

الرجال واقفون فى الشرفات ينظفون بنادقهم.

والنساء يخبزن الفطائر.

وفى الصباح اعتقد أنه أحس بقرصة فى أذنه، فتح عينيه ونظر حوله لكنه كان بمفرده.

اعتقد بالمر فى البداية أنه أطلق سراح نيبر من أجل خاطر نيبر. ثم بدأ يرى أنه كان لأجل خاطره هو أيضًا. أدرك هذا من الارتياح الذى استشعره من النوم والنافذة مفتوحة. لم يعد يخشى القط الأصفر، كما ذهب التوتر الذى كتمه فى صدره عدة شهور.

كان ثمن الطمأنينة باهظًا: لقد عزل نفسه عن الشلة، معلنًا عن خيانته وأبعد طائره المدلل المحبوب، وبهذا الثمن الباهظ يجب أن تكون الطمأنينة رائعة، لكن عندما وصل بالمر إلى الطمأنينة وحاول أن ينعم بها لم يجدها، ووجد بدلا منها صديقه الذى يهب مثل العاصفة الثلجية - تلك الصور والذكريات والأحلام.

حلم ذات يوم أن حمامة كانت تعبر طريقا فى مكان بعيد، وجاءت سيارة أبواقها عالية ودهستها، أطلقت السيارات الأخرى أبواقها، وسرعان ما أصبحت الحمامة مجرد قطعة لحم وريش بعد أن سويت بالأرض.

رأى بالمر امرأة عجوزًا بيدها إناء ترش منه على الطريق، تجمع اللحم والتصق ثانية بالريش وأخذت المرأة العجوز الحمامة بعد

تجميعها بين يديها - والآن فقط أدرك أنها ليست امرأة عجوزاً، بل كانت ولدًا، عصّارًا يخنق رقبة الحمامة، وكان للحمامة منقار ناعم مثل الشفاه وكانت الحمامة تتكلم... تتكلم!

وخلال أيام وليالى عيد الأسرة، ظل بالمر قريبا من والديه، دخل بيت المرح مع أبيه وركب العجلة الدوارة مع أمه. ظن أنه سمع صوت بينز عدة مرات فى الضوضاء والزحام، لم ير فى حياته فى سوق المخبوزات مثل هذا الكم الكبير من الفطائر مرة واحدة، عدد الفطائر على المنضدة الكبيرة أكبر من عدد الجنود المدفونة فى الفناء الخلفى لمنزله، تركته أمه يختار ما يريده، فاختار قطعة من فطيرة التوت.

قال أبوه أشياء كثيرة خلال الأسبوع. حك بيديه شعر بالمر وضغط على كتفه وجذب قميصه وداعب ضلوعه وجذبه إلى الخلف بأصبع مثبت بكلاّب فى جيب بنطاله الچينز الخلفى. وراح يداعب فى حنو جانب رقبته بأطراف أصابعه عندما توقف ليحادث أصدقاءه، كل من هذه الأشياء يعنى شيئًا مختلفًا بالنسبة لبالمر وأيضًا نفس الشىء ـ لغة لا تدرس ـ من كلمات لا تُسمع، جاءت لتبيت على متكأ دافئ بعيدًا عن أذنيه كثيرًا.

لم يستطع تذكر آخر مرة ناداه فيها والده:

«أيها الولد الكبير».

وفى سنوات سابقة كان والده يتوقف دائما عند ساحة الرمى حيث يطير البط الأصفر وينبطح الرماة أرضا ويصوبون وهم معتدون بأنفسهم إلى لحظة إطلاق الرصاص على الهدف. هذا العام مشى بالمر ووالده بالقرب منها دون النظر إليها، حاول بالمر ألاّ يسمع، حتى عندما كان يتمايل ويلعب ويستنشق بعمق رائحة الكعك المحببة، كانت تصله أصوات الطلقات.

وفى يوم الجمعة ركب دراجته إلى محطة القطار القديمة، سمعهم قبل أن يراهم، ضوضاء مثل أصوات الديوك الرومى. توقّف أمام الأقفاص، وكانت الأقفاص العالية تفوقه طولاً، شغلت هذه الأقفاص المضلّعة، التى عجت بكركرة الطيور فيما يشبه صوت الديك الرومى مساحة أكبر من مساحة المحطة القديمة، وجلس فى ظل شباك التذاكر القديم رجل يشحذ عصا.

صاح الرجل ضاحكًا: «من الأفضل ألاّ تقف هنا طويلاً، سوف تضايقك الرائحة».

ظل بالمر واقفًا مدة طويلة، وقد أغلق عينيه، يتنصت مشفقًا عليهم.

وفى مساء يوم الجمعة ازدحمت ساحة الرمى، وفى المنزل لم يعد الطائر الذهبى على ظهر المدفأة.

الفصل التاسع والثلاثون

لم يكن واثقا من الحضور حتى وجد نفسه هناك.

استيقظ فجأة، وكان يتصبّب عرقًا. كان حَلْقُه جافًّا. كانت أحلامه مليئة بالضوضاء، صرخات آلاف الطيور، نحيب وعويل عرفه من قبل فى يوم مثل هذا اليوم حتى اختفى صوته.

كان الشارع لا يزال مظلمًا، والندى يبلل عشب الحديقة. سمع الطلقات فى البداية وهو يهرول عبر ملعب الأطفال. ترك خلفه لوحة التزلج حيث كان يتشاكس مع الأولاد، ولربما اعتقد من أصوات الطلقات .. بوم .. بوم .. أن ساحة الرمى أمامه غير أنه لا يجد طلقات.

اختلطت أصوات طلقات البنادق بذكرياته بين أشجار الحديقة.

ودهش لكثرة عدد الجمهور الموجود هناك، لم يدرك قبل هذا كيف يبدأ الإنسان يومه مبكرًا كى يقتل، ويشاهد قتل خمسة آلاف طائر حتى يهبط الليل.

رآه أحد الأشخاص أثناء سيره. مال عليه ومسح بيده على رأسه قائلاً: «يبدو أن لدينا عصارًا هنا. لابد أنك استيقظت متأخرًا، يجب أن يستيقظ. أفسح الطريق». أما غيره من المارة فقد استداروا ونظروا إليه بابتسامة دون تعليق. وركض الرجل مسرعًا.

كان هناك مدرج مسقوف المقام بملعب دورى الأشبال، كان غاصًا بالمتفرجين. وقف بالمر على الجانب، وأمامه على الجانب الآخر من الملعب كان معلم لوى رقاب الحمام واقفًا وهو يرتدى قبعة البيسبول القرنفلية أمام العصّارين.

قدر ارتفاع المدرج المسقوف مرتين وبطول جبل الأقفاص التى تحوى الخمسة آلاف حمامة تقريبًا، بل صاروا الآن أربعة آلاف وبضعة مئات بعد أن بدأت عملية الصيد. رفعت شاحنة ذات منصة رافعة العمال إلى قمة رصة الأقفاص، تم تفريغ الأقفاص: خمس حمامات فى كل مرة، داخل قفصين من الخشب الأبيض، كل منهما فى حجم سلة دراجة دوروثى.

وحينما يكون أحد الأقفاص على أرضية الملعب، يُعاد تحميل القفص الثانى بالطيور، وكل قفص مقسم إلى خمسة أجزاء، بكل جزء حمامة وباب صغير وخيط لفتحه.

كان مسئول الأقفاص يرتدى سترة برتقالية.

وقف الرماة على الجانب الأيسر يصوبون فوهات بنادقهم السوداء الصغيرة تجاه النهاية المفتوحة للملعب. وهنالك يظهر صدى صوت الطلقات.

كان الرماة الذين لم يحل دورهم بعد يتجاذبون أطراف الحديث والنكات مع بعضهم البعض، وقد علقوا بنادقهم على

أكتافهم مثل مضارب البيسبول، لكن عندما يخطو الرامى نحو الخط الجيرى الأبيض يصبح مختلفا تمامًا؛ يصبح ذا وجه ترتسم عليه علامات الجدية ويركز بصره على القفص الأبيض أمامه على بُعد عشرة أقدام، ويتشابه جميع الرماة فى هذه الحالة من الاستعداد والتأهب.

لكنهم اختلفوا فى نواح أخرى، حيث كان البعض فور أن يخطو نحو الخط الأبيض يرفع بندقيته ويصوبها نحو القفص، وكأن هذا اليوم هو يوم قتل خمسة آلاف قفص. كان البعض أكثر صبرًا وقد أمسكوا البنادق فوق صدورهم حتى ينطلق أول طائر. فى حين يقف عدد قليل من الرماة منتصبًا ساكنًا وقد أسند مؤخرة البندقية على الأرض.

وهناك اختلافات بين الحمام أيضًا، فقد كان البعض عند رفع باب القفص يخرج ببساطة يمشى ويهز رأسه وكأن شيئًا لم يكن أو كأنه فى جولة على أرصفة المدينة. بينما ينقر بعض الحمام الأرض فى الحال بحثًا عن الطعام، والبعض الآخر يطير رغم أن إحداها طارت إلى أعلى القفص فقط مما أثار عاصفة من الضحك. لكن معظمه يطير إن عاجلاً أو آجلاً.

ولا يزال بالمر يحمل فى ذاكرته أول عيد حمام حضره. كان ذلك منذ ست سنوات، وكانوا يصطادون الحمام وهو طائر فى السماء فوق قمم الأشجار بين السُّحب، ودهش بالمر عندما وجد

الأمر ليس كذلك فى الواقع، لقد رأى أن الحمام نادرًا ما كان يطير أعلى من ارتفاع الكتف قبل أن يُسقطه وابل من الرصاص.

ولم يحدث أن تساقط حمام كثير يتمايل بعد إصابته بالرصاص، كما أن الرجال الواقفون بجوار الأقفاص ينتظرون خروج الحمام من القفص ليضربوه بمضارب الكرة. وبذلك يكون الحمام قد حُرم حتى من روعة السقوط من أعلى.

أحيانًا يوجد طائر عنيد يرفض أن يطير، ويظل ينقر فيما حوله، وقد يلف حول القفص وربما يمشى الهوينى جهة المتفرجين الذين يضحكون ويطردونه؛ ليعود إلى الساحة، لكن صبر المتفرجين مع الطيور العنيدة ينفد، فسرعان ما يصيحون: «ألقه!». ويحاول مسئول الأقفاص جرف الطائر فى شبكة صيد بمقبض طويل ويلقيه فى الهواء وهو يجرى. وإذا لم يستطع مسئول الصناديق أن يمسك بالطائر يصيح مسجل النتائج أطلقوا النيران فيفعل الرماة. وأحيانًا تنطلق طلقات الرصاص غير المرئية مثل هبّة ريح مفاجئة، فلا تقتل الحمام غير المتعاون الماشى على الأرض، بل تصيبه بالذعر فينتفض طائرًا فى الهواء، وكأنها تقول: «هناك، أنت أيها الطائر العنيد، أنت تطير الآن، أليس كذلك؟».

لكن الرماة لا يحبون اصطياد طائر يمشى على الأرض؛ لأن

الماشى يحسب كطائر جريح أى لا يساوى إلا نقطة واحدة فى دفتر مسجل النقاط. وتحسب للرامى نقطتان مقابل الطائر المقتول ونصف نقطة للحمامة الجريحة التى مازالت تمشى. ومما لا شك فيه أنه إذا أخطأ الرامى إصابة طائر فى الهواء، فإن الجماهير ستنطلق بهتافات بريئة عالية، ولكن أسوأ الرماة حظًّا هو من يخطئ تمامًا فى قتل طائر يمشى، فهو يواجه اقتطاع نقطة والسخرية منه طوال حياته.

وقد تنجح حمامة فى الطيران دون أدنى إصابة من بين كل الحمام فى أربعة أو خمسة صناديق. أما وقد افلتت من الرصاص فإنها تطير أعلى من مستوى أيادى الجماهير الممتدة وتحلق فى السماء، تدور حول الملعب عدة مرات ثم تبتعد.

ويوجد على المنصدة بجانب مسجل النقاط «طائر ذهبى»؛ جائزة هذا العام لأمهر الرماة.

تعلم العصّارون عملهم جيدًا. كانوا يجلسون عند قدمى معلم لوى رقاب الحمام ذى القبعة القرنفلية مثل العدائين، يحصون خمس طلقات، ثم يقفزون إلى الملعب ثلاثة فى كل مرة، أحدهم يمسك بقفص جديد مملوء بالحمام، والاثنان الآخران وراء الحمام المقتول، لا يلوون رقاب الطيور الجريحة فى الملعب، لأن هذا مضيعة للوقت، وكان معلم العصر يمسك ساعة توقيت ويحسب

الثوانى. كانوا يندفعون بسرعة بالطيور الحيّة، والميتة تتأرجح فى قبضات أيديهم، البعض يمسكون الطيور من رقابها والبعض الآخر من أقدامها، وكان بعض العصَّارين يضعون رباطات حول معاصم أيديهم.

كانت عملية العصر تتم على الرصيف وتلقى الطيور الميتة فى كيس مخلفات كبير من القماش الأخضر الغامق.

لاحظ بالمر أن بينز وموتو وهنرى يعملون كفريق ثلاثى، كان دورهم يأتى كل خمس عشرة دقيقة. لم يتبادلوا العمل أبدا. كان هنرى دائما يُعد الأقفاص.

وعندما سقطت أشعة الشمس على الأشجار العالية، شعر بالمر بيد تضغط على إصبعه الصغير.. كانت دوروثى.

قالت: «هل أكلت؟.. قالت أمك أنك لم تتناول الإفطار».

قال: «لست جائعًا».

ونظرا إلى الأمام نحو ملعب الرماية وهما يتحدثان ولم تترك دوروثى يده. شعر بها ترتعد عند سماع دوىّ كل طلقة من طلقات الرصاص. كان يسمع أنفاسها.

ورغم أنه لم ير دوروثى سوى مرات قليلة منذ عودتها من الإجازة قبل ثلاثة أسابيع، إلا أنه لم يدهش لوجودها بجانبه الآن..

هنا، كان تجاهل بينز وموتو له معظم الوقت صباحًا قد جعله يشعر بالارتياح، وكانت مطاردة الحمام الجريح تجعل أحدهما أحيانًا على بُعد عشرة أقدام منه. لكن محاولتهم إمساك الحمام الجريح والاندفاع بسرعة جعلهم لا يرونه - حتى الآن، هذه المرة عندما حاول بينز إمساك طائر جريح يتخبط فى النجيل، فبدلاً من التوجه إلى الخلف مباشرة عند معلم العصر، التفت إلى بالمر. كانت أسنانه تبدو أكثر اصفرارًا فى الشمس، وعيناه تشعَّان مرحًا. دفع الحمامة أمام وجه بالمر، ثم أمام وجه دوروثى، وكما يتظاهر دائمًا فقد لوى رقبتها. طرفت عينا الطائر البرتقاليتان الصغيرتان.

أغمضت دوروثى عينيها، وارتدّت إلى الخلف، وقالت: «يجب أن أرحل».

أمسك بالمر بذراعها وقال: «انتظرى».

وقف بالمر ودوروثى يحدقان، كل فى وجه الآخر، فهذا هو المكان الوحيد الذى تكون أعينهما فى أمان مِن دوىٍّ طلقات البنادق ذات الماسورتين، وقد اختلط الضحك برائحة المُستردة والبصل والمشويات وكذلك دخان البنادق.

لم يعد يستطيع الانتظار أكثر من ذلك كى يسأل: «أين تركته يذهب؟».

قال كأنها لا تعرف : «نيبر؟».

«نعم. أين؟».

«فى المدينة».

تحيّر بالمر وقال: «المدينة؟! لقد اعتقدت أنكم ذهبتم إلى الشاطئ».

تخيل دوروثى واقفة على ممشى خشبى على الشاطئ أو على الشاطئ نفسه، وهى تطلق نيبر فى الهواء، نيبر يحلق فوق الرمال وزَبد الأمواج المتكسرة على الشاطئ وتخيل أن الحمامة تنعم بحياة طيبة على شاطئ البحر.

قالت: «لقد فعلنا».

ولم تكن تقول ذلك بسهولة.

«لكنك قُلتِ: المدينة فقط».

«لقد توقفنا فى المدينة» - دوت طلقات فارتعدت - لمدة يوم».

تذكر رحلته إلى المدينة قبل عامين، وكم كان مبلغ سروره والحمام يتجول مع المشاة، يرفع رأسه ويخفضها على الأرصفة مع الناس مباشرةً. أما وقد فكر فى هذه الصورة فقد اعتبر تلك الحياة ملائمة للحمام.

أومأ قائلاً: «المدينة، هاه؟».

أومأت .

«هل، حدث أن وصلت إلى هناك وأطلقته فى الهواء فأخذ يطير بعيدًا؟» أراد صورة واضحة كى يتذكر. «أو أنك تركتهِ على الرصيف، ومشى مع الناس؟».

ارتعدت عند سماع دوى بندقية، وأخذت خطوة إلى الخلف.

«لا. لا شىء من ذلك. أطلقته من نافذة السيارة وطار بعيدًا».

لم يكن ذلك مثلما تمنَّى بالمر. «هل حررته والسيارة مسرعة؟».

أم كنتم متوقفين؟

«كنا متوقفين؟».

«فى إشارة مرور؟ أو وسط المدينة؟ أين؟» لايزال يحاول أن يتصور ذلك دون طلقة بندقية أخرى، فارتعدت وكأن الوقت فى شهر ديسمبر وليس أغسطس، «عند فناء محطة السكك الحديدية».

فناء السكك الحديدية؟

أمسكها بالمر من ذراعيها وضغط عليهما وقال: «ماذا؟».

ارتبكت وقالت: «ماذا. ماذا؟».

«هل قلت فناء السكك الحديدية؟».

«نعم. اترك يدى!».

افلتت دوروثى من يده بصعوبة وجرت عائدةً وسط الزحام. أمسك بالمر بها فى آخر الحشد، ووقف أمامها.

قالت ساخرة: «أشجار آدمية ثانية»؟

قال وهو يصرخ: «دوروثى: أنت تركتيه عند فناء السكك الحديدية».

بسطت دوروثى يديها وقالت: «وما الخطأ!».

«ما الخطأ»؟ أفنية السكك الحديدية هى الأماكن الذى ينصبون فيه الشراك للحمام ويحضرونه إلى هنا، لماذا تركته هناك؟».

دوى صوت طلقة وتبعه دوى ثان، انفجرت هُتافات عالية وهرج ومرج. لابد أن شيئا ما مثير للغضب.

حملقت دوروثى بدهشة نحو بالمر، ارتعدت شفتاها، وقالت وهى تصرخ: «إننا لا نعرف شيئا عن هذه الأمور، ولم يخبرنا أحد عنها. كما أنه لا يوجد أحد من أفراد أسرتى يصيد الحمام!».

التفت المتفرجون باتجاههما، جرت دوروثى بعيدًا، ولم يتبعها بالمر هذه المرة.

الفصل الأربعون

كان يدرك مصير نيبر!... يعرف النهاية.

بل إنه يستطيع أن يراها. طائره المدلل خائف فى الظلام الدامس داخل القفص - قفص كالتابوت - عندما يرتفع أحد جوانبه ويدخل الضوء فلا شىء يمنعه من الخروج. يخطو إلى الخارج حيث العشب والريش، وهو يفكر: أين حجرة النوم؟ يخطو خطوة ثانية وينظر حوله، فيرى ناسًا، ناسًا فى كل مكان، ناسًا أكثر مما شاهد فى حياته. ولكنه ليس خائفًا، فالذين عرفهم من الناس، الولد والبنت، كانا دائمًا طيبين معه. كان يعتقد دائمًا أنهما حمام مثله. إنه يتساءل إذا كانا...

تصيب الطلقة النارية قدمه؛ فتدفعه إلى جانب الطريق كما فعلت العاصفة الثلجية منذ مدة طويلة. هناك ألم فى الجناح.. الألم ينتشر. لن يتحرك. لا يستطيع الوقوف أو المشى معتدلاً، يحاول أن يطير لكنه يمشى بتثاقل وببطء فى السحاب الرمادى الكئيب. ثم يتخبط ثانيةً على الأرض، الناس صاخبون، يضحكون ويهتفون ويصدرون صفيرًا، إنهم سعداء. لم ير أناسًا كثيرين سعداء هكذا. يتهادى نحوهم، إنه يريد أن يكون معهم، مع كل هذه الوجوه السعيدة.

ثم يرى أن أحد هذه الوجوه مختلفٌ، وجه واحد لا يضحك، غير سعيد، يعرف هذا الوجه، يعرفه فى أى مكان، كان يعرج ويجر جناحه المصاب خلال الريش الذى يغطى الأرض متجها إلى الوجه إلى أن تجىء الطلقة الثانية.

همس بالمر «نيبر... نيبر...».

يوم الجمعة، فى محطة قطار قديمة كانت الأقفاص تعج بهديل الحمام المتزايد، هنا يكون الحمام صامتًا. ولولا المعرفة الجيدة لما كان لبالمر أن يتصور أن هناك آلاف الحمام خلف القضبان الخشبية.

«نيبر... نيبر...».

همس بالمر فى الأقفاص، وكان يقف على أطراف أصابعه ويزحف على يديه وركبتيه، يحملق فى الفراغات المظلمة بين القضبان الخشبية، رأى العيون البرتقالية تومض فى الظلام. لم يكن لديه أمل فى أن يصل إلى الأقفاص العالية.

«نيبر».

كان نيبر هنا، هو عرفه، فى مكان ما من الأماكن الضيقة بجوار جوانب الأقفاص التى تعلوه.

هذا إن لم يكن قد قتل فعلاً.

«نيبر».

جاء عامل ناحية الزاوية وأشار بأصبعه قائلاً: «أيها الولد لنذهب. تحرك، لن تستطيع أن تعود هنا ثانية، اخرجوا جميعًا».

حرّك بالمر يده إلى أبعد مكان يمكن أن تصل إليه فى الفراغات، حرّك أصابعه، لكنه لم يتحسس إلا الظلام.

كان الرجل قادما: «فورًا - أيها الولد!»

سينتهى الصيف بعد شهرين ولكن ملعب الرماية الذى يغطيه ريش الحمام جعل المنظر كئيبًا مثل أيام الخريف المتقلبة.

وكان رجل يسحب بالزحافة طلقات البنادق ويضعها فى أكوام.

تجاوز ارتفاع كومة الأكياس البلاستيكية الخضراء القبعة القرنفلية لمعلم العصر، وأحيانًا يتحرك كيس منتفخ بالحمام.

ولا يزيد صف الرماة أبدًا على سبعة أو ثمانية فى المرة الواحدة، إلا أنه لا ينتهى أبدًا، ولا تطرف الحمامة الذهبية أبدًا.

يشير الناس بشطائر السجق إلى الطيور الجريحة التى تنطلق بسرعة ويصيحون فى العصّارين: «هناك! هناك!».

ارتكب مسئول الأقفاص خطأ، فقد فتح فتحتى قفصين فى وقت واحد - طار إلى الخارج زوج من الحمام - دوى - سقط من الهواء بطلقة واحدة، قتل مضاعف! تعادل نادر! أربع نقاط.

ويتعالى هتاف الجماهير.

كانت أكثر الهُتافات موجهةً لقط أصفر، اندفع بسرعة البرق إلى الملعب، أمسك بالطائر الجريح وأسرع به إلى داخل الأشجار.

دخان البنادق وضوء الشمس الضعيف بعد الظهر.

ألقى شخص ما بطبق طائر على أرض الملعب، الرماة يطلقون الرصاص وهم مصطفون، تمايل الطبق الطائر وسقط، واندفع عصّار بقوة وأمسك بالقرص وتظاهر بأنه يخنته. يضحك معلم العصر، ويصيح الجمهور، وجه مسجل الإصابات صارم ولا يسجل أى نقطة لإصابة الطبق لصالح القناص.

الناس تجىء وترحل، والذى يتغير هو تركيبة الجمهور وليس هيئته.

كان بالمر هو الوحيد الذى بقى طوال الوقت.

حرارة الشمس.

لعن بالمر - فى نفسه - تشابه الحمام، البعض ريشه غامق - بلون الفحم - وعندما يتمدد على الأرض أو يطير فى الهواء يشكره بالمر لأنه يعرف أنه ليس نيبر.

كان من بين كل أربعة طيور تخرج من الصندوق الأبيض ثلاثة طيور تشبه نيبر، لم يكن لنيبر صفات مميزة. ولم يفكر بالمر فى تثبيت شريط حول عنق الطائر أو رجله؛ لأنه عرف دون أن يقرأ كتابًا وأن الأولاد هم الذين يرتدون الياقات، وأن الأولاد ــ وليس الحمام ــ هم الذين قد يضلون الطريق.

ولما كان بالمر لا يعرف أن أى طائر رمادى الريش قد يكون نيبر، لذا فقد ظن أن كل حمامة هى نيبر. كان متأكدًا من أنه رأى نيبر يُقتل، شعر ألف مرة بألم الرصاصة، ورأى ألف مرة عنق نيبر يُلوى على يد كل عصَّار.

أحيانًا ترفرف حمامة وتطير فى الهواء وتظل تحوم دون أن يصاب ريشها بأذى، ولا تظل فقط فى الهواء بل تحلِّق أعلى وأعلى نحو السحاب الرمادى، ثم تتصاعد فوقه، فوق قمم الأشجار نحو السماء الواسعة! وفى كل مرة يحلق فيها طائر حول الملعب، يفرح بالمر فى صمت. كانت أكتافه تعلو وتهبط تأييدًا للعمل الرائع، أجنحة لم تصب بأذى.

كان الناس حوله يلوحون بقبضاتهم نحو السماء ويلعنون سوء الحظ. بينما آخرون يهتفون للطائر ويرفعون زجاجات الصودا تحية له، وآخرون يسخرون من الرامى غير الماهر.

وفى كل مرة طار فيها طائر بجناحيه بعيدًا عن الأنظار يهمس بالمر: «ليته يكون نيبر». ثم يسمع دوى البندقية ثانية، يرى العصَّارين يجرون إلى مكان تساقط ريش الحمام، وكذلك الأكياس البلاستيكية المكدسة بجثث الحمام، وفى لحظة لا توصف قد تكون معهم بالملعب، الرقاب المترنحة والعيون البرتقالية الميتة وكأنها كرات معدنية صغيرة، وكان واثقًا أن طائره المدلل الذى كان واحدًا منهم، سيتحول إلى سمادٍ.

نسى بالمر أنه لم يأكل شيئًا طوال اليوم إلى أن وقف بجانبه ولد صغير معه كوب به عصير عنب مثلج. كان الولد يسخر من كل دوى بندقية بأن يشير بأطراف أصابعه الملونة ويصيح: «باو! باو!».

وأثناء استبدال قفص أبيض فارغ بآخر به حمام، رفع الولد الصغير بصره إلى بالمر وقال: «هل أنت عصّار؟».

أجاب بالمر وقد أراد ألاّ يزعجه أحد ولم يرُق له هذا الولد من قبل.

«وهل أبدو عصارًا؟».

لم يؤثر تهكم بالمر فى الولد.

قال: «كم تبلغ من العمر؟».

قال بالمر: «خمسة وعشرين».

ظل الولد الغبى يحملق فى بالمر وهو يشرب الماء المثلج محدثًا صوتًا: «أنا فى السابعة من عمرى».

رفع ثلاثة أصابع أرجوانية وقال: «فى غضون ثلاثة أعوام سأبلغ العاشرة ثم...».

دوت الطلقات فى الهواء.

ظهر الطائر الأول من القفص الأبيض الذى مُلئ بالحمام من جديد، ورامٍ جديد يصوب بندقيته.

تمايل الولد وأشار: «باو! باو!» وظل يقول لبالمر بغير وضوح:

«ثم سأكون...».

طلقات أخرى...

«باو! عصّارًا. سوف ألوى رقاب الحمام، حاول أن يظهر ما سوف يفعله لكنه أسقط ثلجًا شبه ذائب على رسغه.

طلقات أخرى...

«باو! باو! سوف أعصر وألوى رقابًا أكثر من أى شخص آخر. سوف ...».

طلقات أخرى

«باو! سوف ...».

لم يعد بالمر يسمع الولد الثرثار، كان يرفع بصره إلى أعلى، كانت الحمامة الثانية التى تخرج من القفص شبيهًا آخر لنيبر.. سارت عدة خطوات متعجلة وتوقفت لتنقر فى الأرض - هدف بكل معنى الكلمة. أمر لا يصدق، لقد أخطأ الرامى الهدف، لقد طارت الحمامة وهى الآن أعلى من شمس الظهيرة.. نادرة أخرى، طائر معجزة.

حجب بالمر الشمس بقبضته وراقب الطائر وهو يدور حول الملعب، كما فعل الآخرون، استجابت عضلات كتف بالمر لإيقاع حركة الجناح وكأنه يستحثه على الطيران.

دار حول الملعب مرة رابعة، وخامسة.. لم يكن فى طريقه

للرحيل، كان بالضبط يدور حول الملعب.. ويدور. فى الواقع، وفيما يشبه المستحيل أخذ الطائر يقترب منه!

إنه نيبر.

عرفه بالمر فجأة وبسهولة.

تملكه فى هذه اللحظة شعور بالخوف مما كان يفعله؛ فها هو نيبر يبحث عنه بالفعل، ووجده.

لم يكن وجه بالمر المُخدَّر المتوقف عن التفكير سوى فخ يغرى طائره أن يعود مرة ثانية للموت. ولن يخطئ الرامى الهدف هذه المرة.

أخفى بالمر وجهه بيديه، ورح يصلى، لا، لا ، لا...

الوقت متأخر جدًّا.

حينما غيّر الطائر اتجاهه عن الدائرة وبدأ يتمايل طويلا نحو الأرض أشار الولد الصغير بجانب بالمر وصاح: «انظر! إنه عائد! إنه عائد!».

أسقط بالمر كوب الماء المثلج من يد الولد عندما بدأ الناس يرفعون أبصارهم إلى أعلى.

أشارت الأصابع والتفت وجوه أكثر، وتوقف الرامى الذى بدأ ينسحب، والتفت حيث أشارت الأصابع، وضع يده فى جيب سترته، كان الصوت الوحيد هو الصراخ العالى الذى صدر عن الولد.

ابتعد بالمر عن الناس إلى المساحة الخالية من ملعب الرماية، حتى يُرى بشكل أفضل؛ لأنه كان يدرك أنه يستطيع إيقاف ما سوف يحدث لا محالة.

هبط الطائر إلى أسفل، يلف فى طيرانه ببطء، رمادى فى رمادى...

هبط أكثر وكأنه متزلج صيفى على منحدر من أشعة الشمس.

وحطَّ على رأس بالمر.

فى هذه اللحظة صمت الجميع حتى الولد الذى كان يصرخ بجانبه، والذى اتجهت عيناه مع أعين الآخرين صوب رأس بالمر. نشبت أظافر نيبر وتحركت فوق فروة رأسه، وشعر فى لحظة رائعة أنه متوّج. كان الرامى يحشو أنبوبتى بندقيته بالقذائف. وفجأة ظهر بينز من حيث لا يدرى، وضرب رأس بالمر، ونيبر يتمسك بأظافره فيها، فأوقع نيبر على الأرض، قبل أن يتصرف بالمر.

جثم بينز على الطائر يجرفه إلى أعلى ويجرى إلى منتصف الملعب، رفع الطائر فوق رأسه وأطلق صرخة انتصار طويلة بسرعة. جرى نحو الرامى، الذى وقف على الخط الطباشيرى وقد ارتسمت القسوة على وجهه، وبندقيته فى وضع الاستعداد، هرس بينز جناحيه وحرّك الطائر أمام وجه الرامى. قائلا: «إنه لك! لقد عاد! اقتله! اقتله. ألقى بالطائر على الأرض وجرى ليختبئ».

كان بالمر أيضا يجرى، رأى الرامى يضع بندقيته على كتفه. كوّنت صرخته - «لا» - سحابة اختلطت بدخان البندقية. سار بالمر خلال الريش، الذى كان متراكمًا فى المنطقة بين الرامى والقفص الأبيض، مثل أوراق الخريف.. اندفع بوجهه أولاً، هبط، انزلق على الريش الرمادى الناعم نحو طائره المترنح، جذبه نحوه وانحنى على صديقه ذى الأصابع الثمانى المتعدد الأصوات، المرح الذى ألقت به عاصفة ثلجية إلى حياته ذات يوم. أغمض عينيه وأخفى وجهه فى طبقة الريش وانتظر الطلقة.. دوى.

انتظر.

وانتظر.

ولم يسمع سوى الصمت.

تجرأ ورفع رأسه ونظر حوله، كان معلم العصر رافعًا إحدى ذراعيه إلى الأمام كباب خلفه العصّارون، وكانت يده الأخرى تمسك بينز من ياقة قميصه.

كانت البندقية فى وضع الاستعداد فقد كانت مؤخرتها على الأرض.

وقف بالمر على قدميه متجاهلاً ما بوجهه من ريش لزج بالدماء وهو يضم نيبر إلى صدره.

شعر بالمر وهو واقف وسط الريش الذى يصل إلى عقدة حذائه المطاطى باطمئنان لم يعرفه من قبل، وكأن قيوده قد تحطمت وأطلقت سراحه كى يحلّق عاليًا.

وللحظة.. شعر فى أطراف أصابعه بنبض قلب نيبر الصغير، وظن أنه يستطيع الطيران، ومن خلال عين الحمامة نظر إلى الساحة من السماء فرأى آلاف الوجوه التى رفعت أبصارها، ولم ير شيئا يخاف منه.

خرج إلى الناس وقد أمسك بطائرة، والتفت ببطء كى يراه الجميع وكى يعرف الجميع.

سمع بالمر صفيرًا وصياحًا وضحكًا.

خرج بالمر من الملعب محتضنا طائره بين يديه، أفسحت له الجماهير الطريق ليمر، شعر بنظرات الناس الباردة، وشم رائحة المُستردة فى أنفاسهم، لمسته يد، فارتعش، كانت يدًا صغيرة، يد طفل يلمس جناح نيبر، يداعبه، وصوت طفل يقول:

«أبى هل أستطيع أنا أيضًا أن أمتلك واحدة؟».

وايمر: أعلن منظمو الاحتفال السنوى لصيد الحمام أنه كان احتفالاً ناجحًا بكل المقاييس؛ فقد وجه أكثر من 300 قناص - وإن كان بعضهم يفتقر لدقة التصويب حسب تصريح أحد المنظمين - نيران بنادقهم إلى حوالى 5000 طائر تم إطلاقها بملعب كرة القدم فى الحديقة التذكارية.

هذا وقد تحققت إيرادات من رسوم المشاركة والاحتفالات - التى استمرت أسبوعًا - بعيد الأسرة بلغت حوالى 34.000 دولار سوف يتم توجيهها لصيانة حديقة المدينة.

وقد شهد احتفال هذا العام حدثًا لم يكن متوقعًا، ففى وقت متأخر من فترة ما بعد الظهيرة اندفع طفل غير معروف إلى ساحة الصيد واستعاد حمامة جريحة. وتوقف القناصون عن إطلاق بنادقهم على الفور، وسُمح للولد المتهور - الذى ربما كان يريد لنفسه طائرًا مستأنسًا غير عادى - بمغادرة المكان بصحبة الحمامة الجريحة.

بالتأكيد لم تصادف هذه الحمامة المحظوظة تصويب القناص هاورد إيكرت. إن إيكرت البالغ من العمر 36 سنة، الذى يعمل بمزارع هارمونى للألبان هو الذى فاز بجائزة قناص هذا العام بعد حصوله على أعلى الدرجات.

علق إيكرت: «يستطيع أى شخص أن يصيب حمامة من الصلصال. أما هؤلاء الصغار فلا يعرف المرء فى أى اتجاه ينطلقون...».

چيرى سبينيللى: واحد من القصاصين الموهوبين فى أدب الأطفال المعاصر. ومن رواياته: «ماجى المجنونة» وهى القصة الفائزة بميدالية نيوبرى عام 1991م، «الصف السابع بمدرسة سبيس ستيشن»، «من الذى وضع ذلك الشعر فى فرشة أسنان»، «صوت حكام».



تتميز رواياته بروح الفكاهة ومسحة الحزن وهو يستلهم شخصيات ومواقف رواياته من خبراته الحياتية فهو أب لستة أطفال.

يعيش چيرى مع زوجته إيلين وهى أيضًا كاتبة مثله. وقد تخرج چيرى فى جامعة جتيسبرج.

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

Wringer

JERRY SPINELLI

تمنى للحظة أن تجرى خلفه .. أن تطارده .. لم يكن يرغب فى حدوث ما حدث .. لكن هذا الشيء لم يتحرك .. بل انتظر مكانه حتى يأتى هو إليه.

فى مدينة وايمر – البلدة التى نشأ فيها بالمر – يعتبر بلوغ سن العاشرة أهم حدث فى حياة أى صبى. إنه اليوم الذى يكون فيه الصبى مستعدًا لأن يأخذ مكانه مع أقرانه "العصّارين" فى الاحتفال السنوى للأسرة . فلذلك شرف وتقليد متعارف عليه.

لكن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للفتى بالمر، الذى لم يكن يعتبر أن عيد ميلاده العاشر حدث يتطلع إليه بل حدث ما يخشاه؛ لأنه – ورغم عدم استطاعته الإفصاح عن ذلك لأحد – لم يكن يرغب فى أن يكون قاصم رقاب للطيور، ولكنه لا يستطيع أن يوقف الزمن الذى سيصل به لا محالة إلى عمر العاشرة كما أنه لا يستطيع أن يمنع العادات والتقاليد.

وذات يوم ظهر زائر على نافذة غرفته، أدرك بالمر أن هذا الزائر، وليس سواه، علامة على أن وقته قد حان. ويجب عليه – بطريقة أو بأخرى – أن يضع حدًا لخوفه وأن يرتفع إلى مستوى ما يؤمن به.

" قصة تحرك المشاعر وتتناول مسألة أخلاقية بعناية فائقة وحساسية مرهفة "

نيويورك تايمز